فاتحة السنة الثالثة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعلنا أمة التوحيد، وجعل ديننا دين التوحيد، وسياستنا سياسة التوحيد، وأعزّ من استقاموا مناعلى التوحيد، وأذلّ من انحرف عن محجة التوحيد، ليعيدنا كما بدأنا الى التوحيد، انه هو يُبدى ويُعيد * وهوَ الغفور الوَدُود * ذو العرش المجيد * فعّالٌ لما يُريد *

والصلاة والسلام على محمد خاتم أنبيائه ورسله، وصفوته من خلقه، الذي بعثه بتوحيد الالوهية، ليحرر الخلق من رق العبودية، للعوالم السماوية أو الارضية، وبتوحيد الربوبية، ليعتقهم من رق التقاليد الدينية، التي ألحقها رؤساء الاديان بالشرائع الالهية، وبتوحيد السياسة ليكون الشعوب والقبائل أمة واحدة، تضمها شريعةٌ عادلة واحدة، وتتعارف بلغةٍ واحدة، ليطلقهم من قيود الحكومة الشخصية الجائرة، ويفكهم من أغلال العصبية الجنسية الخاسرة فاهتدى بكتابه العقلاء المستقلون، وضل به السفهاء المقلدون، فعزّ باتباعه المؤمنون، وذلّ باعراضهم المعرضون، وانهُ لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِهِ تنزيل من حكيم حميد * ولو جعلناهُ قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلت آياتهُ أأعجمي وعربي؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً أولئك يُنادَون من مكان بعيد *

وبعد فقدتم للمنار اثنى عشر عاما ، كان له منها اثني عشر سفرا كبيرا فهي في هذه الامة كنقباء بني اسرائيل ، تجوب الاقطار داعية الى ذلك التوحيد ، مذكرة آخرها بما صلح به أولها ، وانها كالمطر ربما كان الخير الكثير في آخرها ، وقد وعدها الله تعالى بالاستخلاف في الارض ، واظهار دينها على الدين كله ، فلا يعذر في الاسلام اليائسون ، ومن يقنط من رحمة ربه الا القوم الضالون * وهو الذي ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد *

بدا الاسلام غريبا وسيعود كما بدا ،[1] ومن تمام التشبيه أن يكون على غربته شديد القوى ، فيوحد بهداية القرآن المتعددين ، ويجمع بارشاده المتفرقين ، فيعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم باتباع السنة ، ويعيد اليهم ما فقدوا من استقلال العقل والارادة ، فيخرجون من جحر الابتداع والتقليد ، ويظهرون في حلتي المجد الطارف والتليد ، أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لَبْسٍ من خلق جديد *

صادفت الدعوة مقاومة من قوم وارتياحا من آخرين ، كما بينا ذلك في فواتح ما سبق من السنين ، ومن اكبر الآيات المبشرات ، بأننا في اقبال حياة لا في ادبار ممات ، أن الورقات الخضراء ، في شجرة الامة الجرداء ،[2] تزداد خضرة في كثرة ، لاسقوطا ولا صفرة ، فيا لها من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، حفظت حياتها على طول العهد بانقطاع الماء ، فكأنك بها وقد أصابها الوابل فآتت أُكلها ضعفين ، وأُوتي أهلها أجرهم مرتين ، قل هل تَرَبَّصون بنا الا احدي الحُسنَيَيْنِ ، وهل نتربص

(١) اشارة الى حديث مسلم الذي يحتج به اليائسون وهو حجة عليهم (٢) اشارة الى قول الاستاذ الامام: اني أرى في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضراء لا أدري أهي من بقايا الحياة القديمة أم هي مبدأ حياة جديدة

بأنفسنا آلاما وعدنا من سعادة الدارين ، قل ان ربي يقذف بالحق علاّم الغيوب * قل جاء الحق وما يُبدى الباطل وما يُعيد *

قد تمهد طريق الاصلاح، ونادى مؤذنه حيّ على الفلاح ، فسمعه العربي والتركي، والفارسي والهندي، والتتري والصيني، والملاوي والزنجي، الحضري منهم والبدوي، فأقبل كثير من المعرضين ، وعرف كثير من المنكرين ، ونطق كثير من الساكتين ، ودعا كثير من المثبطين ، وأدعى كثير من الكاذبين ، فان كان قد آن لمن تمهد لهم الطريق ان يقولوا، فقد آن للممهدين ان يسيروا ، ولمن قالوا من قبل ان يفعلوا ، وهُدُوا إلى الطَّيّب من القول وهُدُوا إلى صراط الحَمِيد *

هذا ما أعد الله له الأمة ، بعد ان طال عليها أمد الغمة ، رأى أهل البصيرة من عقلائها ما أصابها من الادواء، وشعروا بشدة الحاجة الى الدواء كان مرضها واحداً ، فكان شعورهم كذلك واحداً ، ذلك بأن الاسلام قد جعلها أمة واحدة في صحتها ، وواحدة في مرضها ، لم يقو على توحيده إياها اختلاف المذاهب واللغات ، ولا تباعد الجهات وتعدد الحكومات ، فكما كانت صحتها بالاهتداء بكتابه وسننه ، كان مرضها بالاعراض عن هدايته ، التي جمعت بين حقوق الروح وحقوق الجسد ، واستقلال العقل والارادة في العلم والعمل ، ورابطتي الاخوة والفضل والبر والعدل بين جميع الملل والنحل، [1] وانما العلاج ان يرجعوا من دينهم الى خير ما فقدوا ، ويأخذوا لمصلحة دنياهم أحسن ما وجدوا ، وكذلك فعل المنعم عليهم ، الذين كانقوم

«١» كتبنا في المنار من قبل مقالة في جنسية الاسلام بينا فيها ان الاسلام جاء برابطتين اجتماعيتين احداهما دنيوية اجتماعية وهي تربط جميع من يعيشون في داره ويخضعون لسلطانه بشريعة العدل والمساواة والبر والاحسان مهما اختلفت أديانهم . والثانية روحانية تربط الآخذين بعقائده وآدابه بأخوة أخرى

التأسي والاهتداء بهم ، لقد كانَ لكم فيهم أُسوةٌ حسنةٌ لِمن كانَ يرجو الله واليوم الآخر ، ومن يتولَّ فإن الله هو الغني الحميدُ *

لقد رحضت النوازل هذه الأمة رحضا ، ثم مخضتها النوائب مخضا ، وقد آن ان تخرج زبدها محضا ، فقد ظهرت نقطه من زمن بعيد ، وكثرت ذراته من عهد قريب ، ولم يبق الا أن ينجذب بعضها الى بعض ، وتتكون في جانب من الزق ، هنالك يظهر خير الاسلام ، ويعرف فضله في جميع الأنام ، وان ذلك لواقع ماله من دافع ، انهم يرونه بعيدا ، ونراه قريبا ، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقُّ ، أولم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيدٍ *

فالمنار يذكر مريدي الاصلاح في هذا العام ، بوجوب التعاون على الاستمداد من هذا الاستمداد العام ، فبادروا الى اغتنام فرص الزمان ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، وماذاك الا ان تجتمعوا على حقكم ، وتتعارفوا أنتم ومن يشعر شعوركم ويرى رأيكم ، وتوحدوا طريق التربية والتعليم ، في الجمع بين علوم الدنيا والدين ، قبل ان يغلبكم على الامة أهل التربية المادية المضطربة ، والتعاليم التقليدية المذبذبة ، الذين تحولوا عن التقاليد الاسلامية ، الى التقاليد الافرنجية الصورية ، فهم يدحرجون الامة من تقليد الى تقليد ، ويقذفونَ بالغيب من مكانٍ بعيد ، ومنَ الناس من يجادلُ في الله بغير علم ويتَّبعُ كل شيطانٍ مريدٍ *

لقد وقف سلفنا العقار والاراضي الواسعة ، وبذلوا الدثور والاموال الكثيرة ، على معاهد العلم كالمدارس والمكاتب ، ومعاهد التربية والارشاد كالرباطات والتكايا والزوايا ، وها نحن أولاء نرى الخلف ، قد انشأوا يحيون

سنة السلف ، فهم يبذلون الاموال الكثيرة للاعمال العلمية والخيرية ، والاحزاب والجمعيات السياسية ، أفحسبتم أن الامة تسخو في نهضتها على الحظوظ والمنافع العاجلة ، وتبخل على الاصلاح الاسلامي الجامع بين سعادة الدنيا والآخرة؟ تلك اذاً كرة خاسرة ، وانا لمردودون في الحافرة ، كلا اننا أمة قد كمنت فيها وما فارقتها الحياة ، وان الاسلام نائم في قلوب العامة فيحتاج الى الايقاظ ، وقد كثرت صيحات الموقظين ، الا أنهم لا يزالون متفرقين ومختلفين ، وقد أذن اليوم بينهم مؤذن التوحيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد «لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُكَ اليوم حديد»

ان المجتمعين أجدر بالفلاح من المتفرقين ، وان المتفقين أحق بالنجاح من المختلفين ، وان المستقلين أولى بالثبات من المقلدين ، وان الثابتين أقوى في الجلاد من المتزلزلين ، على أننا لا نجالد أعداء الاصلاح بسيف ولا سنان ، وانما نجادلهم بالحجة والبرهان ، ونحاكمهم الى السنة والقرآن ، ونصبر على ما آذونا ، ونحسن اليهم وان أساؤا الينا ، ولكن لا نترك أمر الامة في التربية والتعليم ، يتنازعه التفرنج الحديث والجمود القديم ، فهم دون ذلك مايشاؤن ، وليعملوا على مكانتهم انا عاملون ، ولينتظروا انا منتظرون ، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربكَ بظلاّمٍ للعبيدِ

يأهل القرآن : ان القرآن كان حجة لكم ، فصار اليوم حجة عليكم ، أخبركم الله فيه أن الارض يرثها عباده الصالحون ، وان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وان حقاً عليه نصر المؤمنين ، وانه وعد الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الارض ، وقال «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» ، وبيّن ذلك بقوله «ما على المحسنين من سبيل ، انما السبيل

على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض» ، فمابال الناس يرثون أرضكم، ويخلفونكم في ملككم ، وأنتم لا ترثون أرضاً، بل لاتحفظون اوثا، وما بالهم يسلكون كل سبيل للافتيات عليكم ، وما بالكم تخربون بيوتكم بأيديهم وأيديكم، كيف ذهبت عزتكم ،وكيف خضدت شوكتكم ،وكيف كنتم تأخذون فتحمدون ،فصرتم تعطون فتذمون ،هل رضيتم بأن تكونوا من الظالمين الباغين ،بعد ان كنتم خير العادلين المحسنين، أليس منكم رجل رشيد، اترضون ان تكونوا ممن نزل فيهم «بأسهم بينهم شديد» ألا تتدبرون قوله تعالى «وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه أليم شديد»

يا أهل القرآن : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» ، وجعلكم الله أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس من أفرط منهم ومن فرَّط ، ولكنكم غيرتم ما بأنفسكم، فغير الله ما بكم، فتنبه الوثنيون وأنتم غافلون ، واجتمع اليهود وأنتم متفرقون ، وسبق النصارى وأنتم متخلفون، وها أنتم أولاء تستيقظون ،فان سرتم الهوينا فالناس مجدُّون، وان كنتم لا تزالون تختلفون فهم يتفقون، فلا يفرقن بينكم جنس ولا نسب، ولا لغة ولا مذهب ، ولا سياسة ولا مشرب ،فان تفرقتم ففي القاصية، فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية، اعتبروا بتأريخ من قبلكم، وبأحوال الامم في عصركم، وتدبروا القرآن، وما بيَّنه من سنن الله في نوع الانسان، فقد آن الاوان، واستدار الزمان، واتصل القريب بالبعيد، وامتاز الغوي من الرشيد، ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؟

منشىء المنار ومحرره

محمد رشيد رضا الحسيني

الانتقاد على المنار

نعيد الاقتراح على العلماء المخلصين بأن يكتبوا الينا بانتقاد مايرونه منتقدا في المنار من مسائل الدين وغيرها عملا بما أوجب الله تعالى من التواصي بالحق والتعاون على الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولكننا نشترط ان تكون الكتابة مختصرة بقدر الامكان وان تذكر المسألة المنتقدة و يبين المكان الذي نشرت فيه بأن يقال هي في جزء كذا من مجلد كذا واذا ذكر عدد الصفحة يمكن ان يستغنى عن عدد الجزء وان لايحتج علينا في المسائل الدينية بأقوال بعض العلماء بل بالكتاب والسنة وكذا الاجماع والقياس فيما هما حجة فيه وأن لايكون في الكلام استطراد الى مسائل أخرى لاتفيد في بيان المراد من الانتقاد . فمن خالف شيئا من هذه الشروط فلنا الخيار في نشر مايكتبه وتركه أو نشر ملخصه ولو بالمعنى لانه لايمكن أن نشغل كثيرا من صفحات المنار بالجدل والقيل والقال

انتقاد احمد بدوي افندي

وليعتبر القراء ذلك بانتقاد احمد بدوي افندي النقاش علينا وعلى جميع المسلمين في مسألة القضاء والقدر انتقادا مبهما على غير شرطنا فقد نشرنا كلامه على علاته وأجبنا عنه فانتقل الى الانتقاد علينا وعلى سائر المسلمين في عقيدة القسمة (فريق في الجنة وفريق في السعير) وفي علم الله تعالى بأعمال الناس قبل وقوعها فنشرنا كلامه على علاته ايضا وأجبنا عنه . فأرسل الينا ردا آخر يزيد على ثلاثين ورقة أرسلها الى ادارة المنار وأرسلتها الادارة الينا في القسطنطينية فقرأنا جملا من مواضع منها فاذا هي مملوءة بالتناقض والسلطة والاغلاط اللغوية حتى في بديهيات النحو . وقد لامنا كثير من القراء على مانشرناه له من قبل فماذا يقولون اذا نشرنا له هذه الرسالة الطويلة العريضة وما وعد بارساله بعدها لتوضيح مسائلها ؟ ؟

يقول احمد بدوي افندي اننا غلطناه فيما كتبناه عن انكاره لعلم الله بجزئيات أعمال الناس كلها قبل وقوعها وجاء بفقرات من رسالته يحتج بها علينا في ذلك ثم انه اهاننا بفقرات كثيرة وعيرنا بتقليد الغزالي كما عيرنا من قبل بتقليد ابن تيمية! فليقل في ذلك ماشاء سامحه الله تعالى ونحن نتمنى لو يكون مصيبا ونكون مخطئين فيما فهمناه من كلامه وللقراء حكمهم في ذلك ٠

قد انطبع في ذهن احمد بدوي افندي مسائل في فلسفة الدين مخالفة لما فهمه المسلمون وما جروا عليه من الصدر الاول الى اليوم وهو يريد بثها في المنار والمناضلة عنها فيه على كونه عاجزا عن بيانها وعن فهم مايرد عليها لضعفه في اللغة العربية وعلى اعجابه بها بحيث لايطيق قبول شيء يخالفها فنحن لانشر له بعد الذي نشرناه شيئا منها لاسباب (منها) ان المنار لم ينشأ لنشر فلسفة الافراد الشاذة التي تهوش بعض الاذهان ولا تنفع أحدا لما فيها من البطلان في بعض المسائل والسلطة والخطأ في العبارة (ومنها) عدم الرجاء في ارجاع صاحبها عن خطأه لاعجابه برأيه وكونه لايفهم مايوجه اليه من الكلام العربي الصحيح فهما تاما. وأوضح الآيات على ذلك انه فهم من قراءة المنار في الزمن الطويل ان منشيء المنار مقلد لبعض العلماء كالغزالي (وهذا ماجزم به في رسالته الاخيرة التي لم ننشرها) وانه مع ذلك يدعو الناس الى تقليد نفسه !!! (ومنها) اضاعة كثير من صفحات المنار فيما نعتقد انه يضر ولا ينفع. فلأحمد بدوي افندي ان ينشر فلسفته في مجلة ينشئها أو كتب ورسائل ينشرها أو يبحث عن مجلة غير المنار

هذا واننا بعد هذا كله نحترم استقلال الرجل بفهمه ونعذره من بعض الوجوه على ماتراه مخطئا به ونقول إنه يجوز ان تكون تخطئتنا له في بعض المسائل لضعف عبارته وكونها لاتؤدي مقصده ولكننا نجزم بأنه على استعداده للفلسفة الدينية قد أخطأ ويخطيء كثيرا في فهم القرآن وفي النظر والاستدلال ولعله لوأتقن اللغة العربية واطلع على كتب التفسير والحديث وترك الاعجاب برأيه يجيء منه خير كثير والله الموفق

• • •

﴿ آدم ابو البشر ﴾

جاءنا من السيد محمد البشير النيفر المدرس بجامع الزيتونة في (تونس) ما يأتي

« بسم الله الرحمن الرحيم »

فضيلة العلامة الحكيم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الزاهر أقامنا الله واياه على الطريقة المثلى

انا نقرأ في فاتحة كل مجلد من ناركم وخاتمته الدعوة الى انتقاد ما يهم انتقاده من مسائل الدين أو السياسة وذلك « والحمد لله » من أمتن البينات على طهارة نيتكم وكنا نود لو يرزقنا الله سعة في الوقت حتى نكتب اليكم في شأن ما أشكل علينا من مسائل قليلة جاءت في التفسير وغيره احياء لشعيرة من شعائر الدين أماتها الجهل بأصوله . وقد رأينا في باب التفسير من العدد السابع من مجلد هذه السنة (سنة ١٣٢٧) رأيا في أبوة آدم للبشر لا يرتضيه القرآن فيما نرى فبادرنا الى الكتابة اليكم في ذلك ونحن في يقين من نزاهة ضميركم عن التعصب والله الموفق

قلتم ان للاستاذ الامام رأيين في تفسير آية « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » احدهما أن ليس المراد بالنفس الواحدة آدم لا بالنص ولا بالظاهر . ثانيهما أنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع ينطق بابوة آدم للبشر اجمعين . ويظهر لي من جنابكم الرضا عما ذهب اليه « تغمده الله برحمته » ولكن العبد أشكل عليه الرأيان لما سأبين

أما الاول فلأن حمل النفس الواحدة على اصل من اصول العرب لا يرضى به التعبير بالناس والروايات المستفيضة في مدنية السورة تقعد في طريق من يحمل الناس على اهل مكة فالظاهر الحمل على العموم . وليست الآية الكريمة كآية الاعراف « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها »

الآية لوجهين الاول ان سورة النساء مدنية وسورة الاعراف مكية ثانيهما ان في حمل آية الاعراف على العموم مسًّا لمقام النبوة فما أبعد ما بين الآيتين !

وأما الثاني فلأن القرآن الشريف والسنة السنية ناطقان بابوة آدم للبشر اجمعين واخراج ما جاء في ذلك عن ظاهره رعيا لمذهب داروين يشبه أن يكون من تفسير القرآن بالرأي الذي كان يشنؤه الامام « رحمه الله » وجريتم «حفظكم الله» على طريقته في ذلك

نداء القرآن للناس يني آدم في مقام الوصية باخذ الحذر من وسوسة ابليس وفتنته ومقام التشريع العام ظاهر في أن المكلفين عن بكرة ابيهم ابناء آدم عليه السلام وما نقلتموه عن الاستاذ الامام في تأويل ذلك بعيد كما يتجلى لفضيلتكم بقليل من التدبر وأية نكتة في توجيه الخطاب الى بني آدم اذا كان التكليف يشملهم وغيرهم ؟

أما السنة السنية فمن أظهر ما ورد في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كلكم من آدم وآدم تراب » وما جاء في حديث الاسراء من الاسودة عن يمين آدم وشماله وأنها نسم بنيه أفكانت ارواح غير الآدميين في مقر آخر ام كانت في ذلك المقر ولكن لم يهتم بها آدم عليه السلام ولا النبي صلى الله عليه وسلم « اذ لم يسأل عنها » لأنها ليس لها في الآخرة مقام معلوم . وأصرح من ذلك وهذا حديث الشفاعة «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون آدم فيقولون انت ابو الناس» الحديث . وفي سعة علمكم بالسنة ما يغني العبد عن حشر اكثر من هذا

ان لم تكن الآيات والاحاديث نصوصا قاطعة في الموضوع فهي ظاهرة فيه والظواهر اذا اجتمعت أفادت القطع كما يقول الاصوليون ولو ذهب ذاهب الي أنها لا تفيد اكثر من الظن كان للقائل بابوة آدم للناس اجمعين ان يسأله عن الوجه في إيثار ذلك الظني على هذا الظني فان كان الوجه عنده درء ما عساه أن يرد على القرآن من شبهات العلماء القائلين بذلك فالذين لا يؤمنون بالغيب أكثر من اولئك عددا واقوى شبها فهل نؤول الآيات الواردة في عالم الغيب بما لا يكدر مشربهم وينقض مذهبهم ؟

أما قولكم حفظكم الله تعالى « ان المسألة علمية لا دينية - وقولكم - ان المتبادر من

النفس بقطع النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات هي تلك الحقيقة الجامعة التي يعبر عنها بالانسانية - أو قريب من هذه العبارات » فللعبد فيهما نظر

أما الاول فلأن ماين دفتي المصحف دين لاشيء منه بجائز مخالفته وهل يأذن الدين لاحد ان يذهب الى مالا يصادق عليه القرآن في تكوّن الجنين باسم علمية هذا البحث أم هل يأذن لاحد أن يقول بما ينقضه القرآن في تأريخ فرعون باسم ان المسألة تأريخية ؟

وأما الثاني فلأن تلك الحقيقة الجامعة التي يعبر عنها بالانسانية أو البشرية أمر اعتباري لايصح ان يكون منشأ الخلق والايجاد هذا مايتسع له الوقت من البحث وفيما آتى الله فضيلتكم من البسطة في العلم والاستقامة في الرأي مايغني عن التذكير بأقل من هذا والسلام عليكم أولا وآخرا . وكتب في ٢٧ رمضان عام ١٣٢٧

(المنار) نشكر لاخينا في الله انتقاده وتذكيره وغيرته على الدين والعلم ونجلي ماألم به من المسائل بما يأتي :

(١) ان الاستاذ الامام لم ينف كون آدم أبا البشر كلهم ولا قال ان القرآن ينبغي أن يؤول ليوافق دارون أو غيره ولا قال انه قد ثبت رأي الذين ينفون كون آدم أبا لجميع البشر ثبوتا قطعيا حتى نؤول لاجله كما صرحنا بذلك في تفسير الآية ولم يتكلم أيضا في تحقيق المسألة في نفسها (مسألة أبوة آدم) وانما قصارى رأيه انه اذا ثبت مايقولون لم يكن ذلك مخالفا للقرآن فيكون شبهة على الاسلام ويحتاج الى التأويل فعلى هذا يكون فهمه رحمه الله للآية ليس من تفسير القرآن بالرأي سواء كان فهمه صوابا أم خطأ لانه لم يحاول ان يرجع القرآن الى رأي رآه أو وافق عليه غيره وانما فهم الآية وأمثالها فهما لايرد عليه اعتراض ولا مجال معه للطعن في القرآن في هذه المسألة

(٢) قلتم انه ظهر لكم انني راض عما ذهب اليه قلتم هذا بعد نقل المسألتين فعلم منه انكم فهمتم انني راض عنهما كلتيهما وقد رأيتم في كلامي الجواب عما استدل به من تنكير ما بثه من النفس الواحدة من رجال ونساء وتفسير النفس الواحدة بغير مافسرها به رحمه الله تعالى وغير ذلك، وفيه الوعد بتحقيق مسألة مايفيده مجموع آيات القرآن المنزلة في خلق الانسان عند تفسير ماورد من ذلك في سورة الحجر أو سورة المؤمنين،

فعلم من هذا الوعد اننا لم نبين رأينا فيما يدل عليه مجموع القرآن في خلق الانسان وانما كلامنا محصور في تفسير تلك الآية بحسب ما فهمه الاستاذ الامام وما فهمه هذا العاجز من تلاميذه المستقلين الذين لا يقلدونه تقليدا في شيء ما وما كان يرضى ان يقلده أحد في شيء، وإنما كان يحث على الاستقلال . وبعد هذا كله أقول ان ما استظهرتموه صحيح في الجملة وسترون وجهه فيما يلي هذا من الوجوه والمسائل

(٣) ذكرتم ان للاشكال عندكم مثارين: فأما المثار الاول وهو كون السورة مدنية لا يجوز ان يراد بالناس فيها أهل مكة فالخطب فيه سهل فانكم قد رأيتم اننا اعتمدنا كون السورة مدنية وكون الخطاب فيها ليس لأهل مكة خاصة ولكن هذا لا يقضي كون القول بهذا شاذا فانه معزو الى امام المفسرين ومعولهم وهو ابن عباس (رض) وعبر الرازي عن مقابله بالاصح ومقابل الاصح هو الصحيح ، فان لم يكن الخطاب لاهل مكة جاز ان يكون للعرب عامة ولا يقعد في طريق هذا كون السورة مدنية ولا كون الاسلام دينا عاما كما انه لا يقعد في طريق غيره من الخطاب الذي وجه الى العرب أو الى بعض الاقوام أو الاشخاص فان عموم الاحكام الشرعية معتبر فيما كان مورده خاصا ولو شخصيا ما لم يقم دليل على الخصوصية . مثال ذلك في العرب قوله تعالى (٩ : ١٢٨ لقد جاءكم رسول من أنفسكم) فان تفسير انفسكم بالعرب لا ينفي كون الرسالة عامة لجميع البشر، ومثاله في الامور الشخصية ما ورد في الافتاء عقب استفتاء بعض المؤمنين وأسئلتهم المعبر عنها بمثل يسألونك و يستفتونك كما هو مكرر في سورة البقرة وسورة النساء وكان يكون المخاطب بالجواب هو السائل والحكم عام بالاجماع ، على اننا لم نجعل كون الخطاب لاهل مكة هو العمدة في الاستدلال على ما فسرنا به النفس الواحدة ولا كونه للعرب وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة

(٤) وأما المثار الثاني للاشكال وهو ما ورد من الكتاب والسنة في أبوة آدم لجميع البشر فهو على تقدير تسليمه فيهما معا لا يقتضي كون النفس الواحدة في الآية الاولى من سورة النساء هي آدم اذ يجوز ان يثبت ذلك في آيات غيرها وأحاديث ولا يكون هو المراد منها ولم يقل الاستاذ الامام ولا قلنا ان هذه الاية تنفي كونه أبا لجميع البشر ،

ولكم ان تحتجوا بذلك على قوله رحمه الله إنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع على أبوة آدم لجميع البشر وستعلمون مافيه

(٥) انكم قد ذكرتم ان حمل آية الاعراف على العموم لا يصح لأنه يمس مقام النبوة فاذا امتنع هناك أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم فلم لايجوز ان يمتنع هنا وهوليس متبادراً من اللفظ العربي بمجرده حتى تقول انا أولنا آية الاعراف لتطابق القول بعصمة الانبياء ولاحاجة الى تأويل آية النساء. فالصواب ان عدم حمل النفس الواحدة على آدم في الآيتين ليس تأويلا لهما لان لفظ النفس ليس مرادفا لكلمة آدم يوضح ذلك الوجه الآتي

(٦) ان مايرد في تفسير مبهمات القرآن لايجعل اللفظ المبهم نصا ولاظاهراً في المعنى الذي فسر به في الحديث ولا في القرآن نفسه ان وجد ولكننا نقبل ذلك التفسير اذا صح عندنا ٠مثال ذلك أن يصح في حديث ان المراد بقوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) هو فلان بن فلان فاننا نقبل هذا التفسير على الرأس والعين ولكننا لانقول ان لفظ رجل في الآية هو نص أو ظاهر في ذلك الرجل المعين لان العربي الذي لاعلم له بذلك الحديث لايفهم هذا المعنى من اللفظ ٠ولم يرد في الكتاب ولا في الحديث تفسير للنفس في آية النساء بآدم ألبتة فكيف نقول ان ماورد في ذلك يجعلها نصا أو ظاهرا وهو لم يرد تفسيرا لها؟؟وهذا هو مرادنا مماقلناه في (ص٤٨٦م ١٢) ان الذين فسروا النفس الواحدة بآدم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولامن ظاهرها بل من المسألة المسلمة عندهم وهي ان آدم أبو البشر

(٧) استدل صديقنا المنتقد على كون جميع الناس من بني آدم بنداء الله تعالى في القرآن لبني آدم في مقام الوصية بالحذر من فتنة الشيطان ووجه الاستدلال عنده أنه اذا لم يكن المراد ببني آدم جميع المكلفين لايكون في توجيه الخطاب اليهم نكتة. ويمكن أن يجاب بأن نكتة ذلك في الآية التي أشار اليها هي إقامة الحجة عليهم بما كان من عاقبة وسوسته لأبيهم والعبرة في ذلك لسائر المكلفين الذين لايعتقدون انهم من ذرية آدم كأهل الصين هي ان الشيطان يردي من اطاعه فيجب أن يجتنبوا

طاعته كما يجب ان يجتنبها أبناء آدم . ونظير ذلك اعتبار المسلم بمثل قوله تعالى «يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل » فيعلم انه لايكون على شيء يعتد به من الاسلام حتى يقيم القرآن . وقد أشارت عائشة الى هذا المعنى في حديث لعن أهل الكتاب الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فقالت «يحذر ما صنعوا » وقد بينا آنفا ان توجيه الخطاب في القرآن الى قوم أو أناس معينين لاينافي عموم التكليف فاذا فرضنا ان بني آدم هم العرب ومن كان يساكنهم من أهل الكتاب وان الخطاب في مثل تلك الآية خاص بهم لوجود النبي بينهم فلا يمنع ذلك ان يعتبر بالموعظة التي في الخطاب من يدخل في الاسلام من غيرهم . ومن ذلك خطاب الانصار بقوله تعالى « ٣ :١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وهي هداية لجميع المسلمين أيضا كما قبلها و بعدها

(٨) بعد هذا يمكن ان يقال اذا كان في البشر ألوف الالوف لايعتقدون أنهم أبناء آدم ولم يسمعوا باسم آدم فما هي نكتة خطابهم ودعوتهم الى الاسلام بنسبتهم الى آدم والمأثور المعقول ان يخاطب الناس بما يعرفون وأن يحمل حديث العاقل للقوم على مايعهدون في مثل النداء فان أراد إعلامهم بشيء مخالف لما يعتقدون جاء به بصيغة الخبر المؤكد كما هي سنة القرآن المطابقة لقوانين البلاغة العليا ويشيرون الى هذا في أول كتب المعاني . وفي صحيح البخاري من حديث علي موقوفا «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون ان يكذّب الله ورسوله ؟ » وفي مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود «ما أنت بمحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة» . وورد في الضعاف المتعددة الطرق عن ابن عباس مرفوعا « أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » وهذا الوجه أي كون كثير من البشر لا يعرفون آدم ولا يعتقدون أبوته لهم هو العمدة في جزم الاستاذ الامام بعدم حمل آية أول النساء على هذه المسألة المشهورة عند العبرانيين والعرب مع كون لفظها ليس نصا ولا ظاهرا فيها من حيث لفظها وقد أجاز ان يطبق كل قوم اعتقادهم عليها

(٩) ان ما أوردتموه من الاحاديث ليس نصا أصوليا في المسألة فان المخاطبين بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « كلكم من آدم » لم يكن فيهم أحد من الصينيين ولا من هنود

أمريكا ولا من أهل ملقا ولكن الحديث يكون هداية لهؤلاء بعد دخولهم في الاسلام على الطريقة التي أشرنا اليها في بعض المسائل السابقة · وكذلك حديث الا سودة التي رآها النبي (ص) عن يمين آدم وشماله لاتدل على كونه أبا لجميع البشر . ولا يعارض هذا كونه (ص) لم يذكر انه رأى هنالك أوفي مكان آخر نسم قوم آخرين من البشر كما أن ذكره لبعض الانبياء في ذلك الحديث لايمنع ان يكون هنالك أو في مكان آخر أنبياء آخرون فالحديث لم يرد في بيان مقر جميع أرواح البشر والانبياء ولادليل فيه على كون مارآه يكون دائما حيث رأى فقد ورد في مقر الارواح أحاديث أخرى والظاهر ان ماوآه صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الليلة قد مثل له حيث رآه لاجل ان يراه والله أعلم حيث يكون في سائر الاوقات ، وقد مثلت له (ص) الجنة في عرض الحائط وهي هي التي عرضها كعرض السماء والارض . وكذلك يقال في حديث الشفاعة فان تحدث ولد آدم بالذهاب اليه هو كتحدث اتباع كل نبي ذكر في الحديث بالذهاب اليه ولا ينافي ذلك ان يكون في البشر أقوام آخرون لايتحدثون بالذهاب الى أحد أو يتحدثون بالذهاب الى أنبيائهم لرجائهم فيهم « وان من أمة الا خلا فيها نذير »

(١٠) اذا فرضنا ان هذه الاحاديث تدل وحدها أو مع غيرها على كون آدم عليه السلام أبا لجميع من وجد في الارض من البشر بالنص أو بالظاهر فلا يقتضي ان يكون ذلك تفسيرا للقرآن اذا لم يكن لفظه نصا ولا ظاهرا في ذلك والاستاذ الامام لم يتعرض لما ورد من الاحاديث في المسألة وانما اكتفى ببيان كون ما يعتقده كثير من البشر في أصلهم ومنشئهم لاحجة فيه على القرآن إن صح ولا وجه لأن يكون حائلا دون إيمانهم به ولم يتعرض لمثل هذا في الاحاديث

(١١) نحن نعتقد ان اسلوب القرآن في الاجمال والابهام والاطلاق والعموم هو من أقوى وجوه الاعجاز فيه واسباب تعاليه عن تطرق الريب اليه وتحويم الشبهات حوله وليس هذا الاسلوب بالصناعة التي يقدر عليها البشر فاننا نرى أعلم العلماء منهم في علم أو فن يؤلف فيه كتابا فلا يمر عليه الا زمن قليل حتى يظهر له ولغيره الاختلاف والخطأ فيه وقد مر ثلاثة عشر قرنا ونيف ولم يظهر في هذا القرآن

الذي جاء به النبي الامي الناشيء في الاميين خطأ ولا اختلاف (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) والاحاديث ليس لها هذه المزية في الاعجاز وكثير منها منقول بالمعنى ومنها ما كان يقوله النبي (ص) عن اجتهاد لا عن وحي ولا سيما المتعلق منها بأمور العالم دون امور الدين · أفيصعب على بعض المسلمين إظهار هذه المزية لكتاب الله في بعض المسائل على غير الوجه المشهور عندهم وان لم ينقض ذلك المشهور في نفسه !! وكان ينبغي للمنتقد أن يذكر ماعنده من الجواب لمن يوقنون بأن البشر من عدة اصول كما تمنينا في (ص ٤٨٨ م ١٢)

(١٢) يقول المنتقد ان شبهات الذين لا يؤمنون بالغيب على الآيات الواردة في عالم الغيب أقوى من شبهات الذين ينكرون كون آدم أبا لجميع البشر أو يعتقدون ان لهم عدة آباء فهل نؤول آيات عالم الغيب بما لا يكدر مشربهم ولا ينقض مذهبهم ؟ ونقول ان هذه الدعوى ممنوعة فالذين لا يؤمنون بالغيب لا يوردون شبهات على عالم الغيب وانما هم قوم تابعون لحسهم يقولون اننا لا نؤمن الا بما نراه أو نحس به وهم يعلمون ان عدم الاحساس بالشيء أو عدم العلم به لا يقتضي عدمه في نفسه ومن تقوم عنده الحجة منهم على الوحي والنبوة لا يرى اخبار عالم الغيب مانعة من ايمانه وما كنت أظن ان هذا يخفى على المنتقد الفاضل ولعله سرى اليه من بعض المارقين الذين كفروا بالله ورسله تقليدا لبعض الافرنج اذ يسمعهم أو يسمع عنهم انكار الملائكة والجن فليسألهم عن دليل هذا الانكار هل يجد عندهم دليلا او شبهة ؟ لا لا ! وانما يقولون انه لم يثبت عندنا بالحس ولا بالدليل العلمي ! ، ونحن المؤمنين نقول مثل ذلك ونزيد انه ثبت عندنا بخبر الصادق الذي هو اصدق ممن تثقون بخبرهم اذا قالوا لكم ان في الكون كذا كذا من الغرائب الطبيعية

(١٣) أذكر المنتقد بمسألة لا ينبغي أن ينساها المستقل في العلم الذي يعنيه أن يفهم القرآن فهما صحيحا وقد صرحنا بها في المنار من قبل وهي ان الاصطلاحات الشرعية والفنية الحادثة بعد نزول القرآن والروايات والتقاليد المشهورة في تفسيره — هذان الامران هما اللذان يحولان كثيرا دون فهم القرآن بما تعطيه عبارته الفصحى

ويتبادر من أسلوبه الاعلى فيجب أن يكون القرآن فوق الاصطلاحات والمسلمات كلها وأن يستعان على فهمه بالروايات الصحيحة التي لا تخل بما يتبادر من عبارته وأسلوبه البليغ وحكمة كونه هداية لجميع البشر في كل زمان ومكان واننا نرى كثيرا من المفسرين يخطئون عند غفلتهم عن هذه القاعدة ويخالفون الروايات المأثورة عن السلف عند تنبيهم لها اذا رأوا الرواية مخالفة لما يقتضيه الاسلوب العربي بحسب فهمهم ومن ذلك ما ستراه في تفسير الجزء الثاني عن ابن جرير شيخ المفسرين الاولين

(١٤) أما انتقاده نفعنا الله بغيرته على العلم والدين لقولنا ان المسألة علمية لا دينية فانني أجيبه عنه بالايجاز وان لم أتذكر انني قلت هذا في تفسير الآية ولا أجد وقتا للمراجعة فأقول ان ما يذكر في القرآن من أمور الخلق وعجائبه وأسراره لا يراد به شرح أحوال المخلوقات وبيان ما هي عليه في الواقع تفصيلا لان هذا ليس من مقاصد الدين وانما يذكر على انه من الآيات على قدرة الله وعلمه وحكمته في خلقه ورحمته بعباده ، ومن المنبهات للانتفاع بما في هذه المخلوقات والشكر عليها ، ولذلك يستعمل فيها المجاز والظواهر المتعارفة بين الناس وتحديد المسائل العلمية لا يكون بمثل هذا كقوله تعالى « وجدها تغرب في عين حمئة » فلا يراد به أن ذا القرنين وجد الشمس تنزل من السماء فتغرب في عين حمئة من عيون الارض . ومع هذا كله لا يكون خبر القرآن الا صادقا ولكننا لا نعرف ان أحدا من علماء المسلمين عني كعنايتنا وعناية شيخنا الاستاذ الامام بالدعوة الى الاهتداء بالقرآن كله وصرف معظم عنايتهم الى ما كثر الارشاد اليه في آياته كالبحث في خلق السموات والارض وما فيهما من البحار والأنهار والجبال والنبات والدواب وغير ذلك وكالسير في الارض والاعتبار بسنن الله في أحوال الامم بعد معرفة تأريخها ؛ فانا نرى علماء المذاهب الدينية فينا قد أهملوا أكثر ما أرشد اليه القرآن وجعلوا الدين كله أو جله محصورًا في الاحكام العملية التي لم يعن القرآن بها وهي أقل ما ورد فيه ولا سيما الاحكام الدنيوية كالبيوع والشركات والمخاصمات فلايقال لمثلنا ان كل ما في القرآن دين وإن الدين لا يأذن لأحد أن يقول قولا لا يصادق

عليه القرآن فنحن الذين ندعو دائما الى جعل حكم القرآن فوق كل حكم وهديه فوق كل هدي وخبره فوق كل خبر وانما يقال ذلك لغيرنا من علماء المسلمين الذين قالوا حتى في الاحكام التي هي عندهم جل الدين ما لم يصادق عليه القرآن كقولهم ان مدة الحمل تكون في الواقع المعتبر شرعا اكثر مما حدده القرآن من مدة الحمل والفصال جميعا وقد رأى صديقنا المنتقد ما كتبناه في ذلك بالجزء الاخير من المجلد الماضي . فاذا جاز ان يعتمد أئمة الفقه منا على قول بعض النساء اللواتي هن مظنة الخطأ والكذب فيما لا يصادق عليه القرآن وقد نطق بغيره بناء على ان مانطق به يحمل على الغالب المعروف عند جمهور الناس فلم لا يجوز عند اتباعهم ان يعتمد على قول جمهور العلماء الباحثين المدققين في مسألة علمية لم يرد في القرآن نص فيها وإنما ذكرت مبهمة في سياق مقصد من مقاصده كحث الناس على ان يتقوا الله في ذوي أرحامهم والضعفاء منهم لانهم من أصل واحد أو جنس واحد وعبر عن ذلك بالنفس الواحدة ولكنه لم يبين حقيقة تلك النفس . على اننا لم نحمل الآية ولا غيرها من الآيات على ماقاله أولئك العلماء الباحثون في أصول البشر وخلقهم ولكننا اخترنا ان ندع ما أبهمه القرآن على إبهامه (ص ٤٨٦ م ١٢) وهو تنكير تلك النفس وعدم تعيينها أو فهمها مما يتبادر من اللفظ العربي بصرف النظر عما وراءه من الروايات والتقاليد المسلمات التي ليست بنص عن المعصوم في تفسيرها (ص ٤٨٨ م ١٢)

(١٥) وأما انتقاده الاخير على قولنا في تفسير النفس المتبادر من اللفظ فقد بناه على ذكر لفظ الانسانية في عرض كلامنا وتفسيره إياه بالمعنى المشهور بين العامة ناسيا مافسرناه به وما عبرنا به في أول العبارة عنه من قولنا هو الماهية أو الحقيقة التي بها كان انسانا . ونعني بذلك الروح الانسانية التي اتحدت بالجسد فصار مجموعهما حيوانا ناطقا لولاها لم تكن هذه المواد الترابية التي تكوّن منها جسد الانسان خلقا آخر حيا ناميا متحركا . فهل يقول ان هذه الحقيقة الانسانية أمر اعتباري ؟ ؟ كلا إنها خلق وجودي مستقل

(١٦) بعد ان طبع تفسير تلك الآية في المنار تفحناه وزدنا فيه فوائد

اثبتناها في نسخة التفسير التي تطبع على حدتها منها ان لبعض الباحثين من المسلمين العصريين رأيين آخرين في النفس الواحدة أحدهما انها الانثى ولذلك وردت مؤنثة في كل آية وصرح بتذكير زوجها الذي خلق منها في بعض الآيات وثانيهما انها كانت جامعة لاعضاء الذكورة والانوثة وذكروا لذلك نظائر أثبتها العلم الحديث . فيراجع هذا في (ص ٣٣١ ج ٤) من التفسير وسيصدر بعد زمن قليل

هذا ما سمح لنا به الوقت من ايضاح المسائل المتعلقة بهذا الانتقاد وصفوة القول ان ما أوردناه في التفسير لا ينفي القول بابوة آدم لجميع البشر وقد وعدنا هنالك بتحرير هذه المسألة في موضع آخر من التفسير



قضاء الفرد وقضاء الجماعة

﴿ في الاسلام (*) ﴾

أيها السادة

كلمتي اليوم في قضاء الفرد وقضاء الجماعة في الاسلام وحيثما قلت قضاء الجماعة فانما أريد مدلوله العام أي القضاء والافتاء والتشريع أو التفريع

تعلمون ان كفالة العدل الذي هو مناط الراحة والسعادة في كل مجتمع انما هو القانون أو الشريعة التي تصان بها الحقوق وترد المظالم ويعاقب المجرمون المجترءون على انتهاك حرمة الراحة والامن في الهيئة الاجتماعية وهذه القوانين اما أن تكون وضعية أو شرعية وقد عرفها ابن خلدون بقوله :

«اذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة و بصرائها كانت سياسية عقلية واذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسية دينية»

وتعلمون ان الفقه الاسلامي وأريد به قسم المعاملات لا العبادات هو قانون المسلمين الشرعي ومناط الاحكام التي يفصل بها في المنازعات والخصومات التي تقع بين الناس

أقول القانون الشرعي تجوزاً اذ أن أحكام الشريعة الاسلامية وقانونها الجامع انما هو الكتاب والسنة وهما الاصل أما الفقه فانما يسمونه شرعاً باعتبار ان مأخذه من الكتاب والسنة وعمل الصحابة والاجماع والقياس فاذا انطبق عليه تعريف ابن خلدون فانما ينطبق عليه من هذه الجهة أي ان تلك القوانين لها أصل في الشرع لانها هي بعينها المفروضة من الله

وبما ان أساس التفريع أو التشريع عند الفقهاء هذه الاصول الخمسة فقد سموا

(*) خطبة لرفيق بك العظم المؤرخ المشهور القاها على طلاب مدرسة القضاء الشرعي بمصر

الاحكام الفقهية شرعا وخالفهم في ذلك كثير من أئمة العلم والمحدثين فقالوا كل حكم لا يستند الى دليل او لا يعرف دليله من الكتاب أو السنة فليس بشرع

وليس من غرضي في هذا البحث الحكم بين الفريقين و إنما الغرض منه تقديم مقدمة تساعدنا على الانتقال الى النظر نظرا صحيحا في سير القضاء وتأريخه وكيف كان القضاء والافتاء في الاسلام وما هو ضمان العدالة فيهما وما منزلة قضاء الفرد وقضاء الجماعة من الصواب والخطأ ونستطرد من ثم الى ماتخلل التشريع والقضاء من الشؤون التي لا يخلو بيانها من فائدة وإن كنت لا أستطيع من البيان غير جهد المقل

علمنا ان أساس الشرع وأصله في الاسلام هما الكتاب والسنة بمعنى أن الاحكام الدينية أي العبادات والقوانين الدنيوية او السياسية كما يسميها ابن خلدون وهي أحكام المعاملات والعقوبات التي وردت في الاصلين المذكورين قد قررها الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم فصارت شرعا وهذا الشرع لا يدخل تحت مدلول قضاء الجماعة المراد به جعل قوة التشريع لافي يد واحد بل جماعة الا من حيث لزوم فهمه على وجوهه التي ارادها الشارع أي إنَّ تفهُّم الحكم من هذا الاصل وتقريره هو الذي يلزم ان يناط بالجماعة دون الفرد تفاديا من الخطأ والاثم

وتعلمون بالضرورة أن الاحكام التي شرعها لنا الشارع كانت تشرع تدريجا فكلما عرضت لهحادثة أو سئل عن حكم شرع له شرعا حتى كان من ذلك في الكتاب والسنة نحو ست مئة وخمسين حكما أو تزيد اعتبرها أئمة الفقه بعد ذلك اساسا للتشريع فوضعوا لنا كتب الفقه التي كانت في الممالك الاسلامية ولم تزل في بعضها مدار الاحكام الشرعية في المعاملات والعقوبات وما يتبعها من قضاء المظالم والحسبة وسياسة الرعية وغير ذلك الى اليوم

ويبدأ تدوين الاحكام الفقهية من أواخر العصر الاول واوائل الثاني فالتشريع إذاً له في الاسلام تأريخان: تأريخ تقرير أصول الشريعة والعمل بهذه الاصول، وتأريخ التفريع أو الفقه والعمل به . يتخلل ذلك أيضا تأريخان : تأريخ حفظ الشريعة في الصدور ، وتأريخ قيدها في الدفاتر والسطور

* * *

وابيان ذلك و بيان كيف كان يقضي الصحابة والتابعون أقول :

علمنا ان اساس الاحكام ومدارها ومعوّل القضاء في الصدر الأول كان على الكتاب والسنة أما الكتاب الكريم فقد كتب متفرقا في عهد النبوة في خلافة ابي بكر كما هو معروف مشهور . وأما السنة السنية فقد بقيت محفوظة في الصدورالى اواخر عهد التابعين او كتب منها في غضون هذه المدة شيء يسير

فكان القضاء في عهد الخلفاء الراشدين ملازما للافتاء بالضرورة لان القضاء كان الى الخليفة وهو لايحفظ الاحكام التي وردت عن الشارع كلها بل كان كثير من الصحابة يحفظ كل واحد منهم شيئا منها فاستفتاؤهم في معرفة الحكم ضروري واليكم ماروي عن قضاء ابي بكر وعمر

اخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال : كان ابو بكر اذاوردعليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله في ذلك الامر سنة قضى بها فان اعياه خرج فسأل المسلمين وقال اتاني كذا وكذا فهل علمتم ان رسول الله قضى في ذلك بقضاء فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله فيه قضاء . فيقول ابو بكر الحمد الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فان اعياه ان يجد فيه سنة عن رسول الله جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم فان اجمع رأيهم على امر قضى به وكان عمر يفعل ذلك فان اعياه ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لابي بكر قضاء فان وجد ابا بكر قضى فيه بقضاء قضي به والا دعا رؤوس المسلمين فاذا اجتمعوا على امر قضى به

هذه رواية البغوي عن قضاء أبي بكر وعمر ومنها يتضح أن القضاء في عهدهما قضاء الجماعة وعليه يقاس قضاء من بعدهما من الخلفاء الراشدين في الدور الاول لتأريخ القضاء في الاسلام أي الى العهد الذي بدأ فيه التدوين والعمل بالفروع بدليل انه كان في كل مصر من الامصار الاسلامية نفر من الصحابة ثم التابعين يسمون الفقهاء لحفظهم الاحكام وتفقههم في الدين وكانوا يستشارون في النوازل عند القضاء فيها لانهم حفاظ الشريعة والراوون للاخبار الصحيحة فلا مندوحة عن الرجوع اليهم في القضاء

ومن الفقهاء الكبار في الصحابة علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن ثابت وابو سعيد الخدري وانس بن مالك ومعاذ بن جبل ومن في طبقتهم ممن يحفظ عن رسول الله قليلا او كثيرا

وقال ابن القيم ان عدد من حفظت عنهم الفتوى من الصحابة مئة ونيف وثلاثون نفسا ما بين رجل وامرأة . وكان اكثر هؤلاء موزعين في الامصار بالضرورة وهم شورى القضاء حيثما وجد منهم جماعة يستشارون كما أثبت ذلك التأريخ

وتلي هؤلاء طبقة أخرى من أصحابهم وهم التابعون صارت اليهم الفتوى في الامصار فكان في المدينة سعيد بن المسيَّب وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وخارجة بن زيد الى غير هؤلاء . وتليهم طبقة أخرى منهم محمد بن شهاب الزهري المشهور وأضرابه وطبقة أخرى فيهم الامام مالك بن انس صاحب المذهب في المدينة وكان من المفتين في مكة عطاء بن أبي رَباح وطاووس بن كيسان ومجاهد بن جبر وغيرهم وتليهم طبقة ثم طبقة الى قيام الامام محمد بن ادريس الشافعي صاحب المذهب في مكة

وكان من المفتين في البصرة عمرو بن سلمة الجرمي وأبو مريم الحنفي والحسن البصري وغيرهم وتليهم طبقة فطبقة وعلى هذا تقاس بقية الامصار كالكوفة ومصر والشام وغيرها وكلها كان فيها العدد الجم من التابعين وتابعي التابعين يستشارون في الاحكام ويتناقلون الشريعة حفظا في الصدور الى أن دونت في السطور

اذا أضفنا الى هذا ان رسول الله شرع لهم الاجتهاد عند عدم وجود النص وان أبا بكر وعمر كانا لا يجتهدان في مسألة الا اذا جمعا رؤس الناس وخيارهم لاستشارتهم وحكمنا ان بقية الخلفاء الراشدين كانوا كذلك وقسنا على ورعهم ورع من بعدهم من التابعين وتابعيهم واتباعهم سَنَن من قبلهم خوفا من تبعة التفرد بالرأي واعتصامهم بالشورى مع اهل العلم والحديث بدليل ما رواه عن قضاء الجماعة في عصرهم ابن عبدالبر في جامع بيان العلم عن المسيب بن أبي رافع الاسدي المتوفى سنة ١٠٥ قال : كان اذا جاء الشيء من القضاء ليس في الكتاب ولا السنة سمي

صوا في الامراء فيرفع اليهم فجمع له اهل العلم فما اجتمع عليه رأيهم فهو الحق

اذا أضفنا هذا كله الى ما سبق بيانه نتج لنا منه أن القضاء في العصر الاول كان قائما بالشورى أو هو قضاء الجماعة الذي فيه كفالة الحقوق وتحري العدل والحق وهو خير من قضاء الفرد وأبقى لسعادة الامة وأضمن لبقاء الدول بلاريب

ليس المراد بقضاء الجماعة هو قضاء هيئة مؤلفة من اكثر من واحد فقط كما قد يتبادر الى الذهن بل هي بالمعنى المشترك ايضا جعل قوة التشريع القضائي مصونة عن رأي الافراد وتفردهم بالتشريع منوطة بالجماعة تثبتا من الحكم واطمئنانا للدليل واعتمادا على ما هو الاصلح عند الجماعة اذا تعذر وجود النص

ان مراعاة الاصلح قاعدة من أهم قواعد الشرع الاسلامي التي يدفع بها الحرج وتدرأ المفاسد عن المجتمع حتى لقد كان كبار الصحابة يراعون قاعدة الاصلح عند الضرورة مع وجود النص كما يأتي بيانه بعد ويتنازعون على المسألة الواحدة يجيء بها النص من عدة روايات أو يحتاج الى التفهم الدقيق تثبتا من الحكم ورغبة بمحض الخير للامة والعدل بين المتقاضين وبذلا للجهد في بيان الحقيقة للمستفتين وقد قال ابن القيم : تنازع الصحابة في كثير من الاحكام ولكن لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال . أي المسائل التي تتعلق بالايمان

قلنا إن المراد بقضاء الجماعة قوة التشريع القضائي في حياز جماعة لا فرد لان ذلك اسلم وابعد عن الخطأ واضمن للعدل وسببه ان الاحكام التي يرجع فيها الى الرأي والاجتهاد او القياس عند تعذر وجود النص او عند لزوم ترجيح رواية من الروايات تحتاج إلى شروط قلما تتوفر في الفرد الواحد وإن توفرت له فربما لا يتيسر له تحري المصلحة وتطبيق الحكم عليها من كل وجه بحيث لا يخالفه فيه غيره ممن هو في طبقته من اهل العلم

اعتبروا ذلك في أئمة المذاهب المجتهدين فانه مع بذل كل واحد منهم في تقرير فروع المذهب واصوله منتهى الجهد في تحري صحيح الآثار والاخبار وتتبع اصول الشريعة فقد اختلفوا في كثير من المسائل واختلف أتباعهم بعد ذلك اختلافهم ايضا فكان من ذلك انقسام القضاء الاسلامي على نفسه حتى وجد في

بعض العصور اربعة قضاة لاربعة مذاهب في مصر واحد من الامصار الاسلامية هذا فضلا عن اختلاف فقهاء كل مذهب أيضا في المسألة الواحدة حتى أصيب الافتاء بما أصيب به القضاء من التشتت والانقسام واضطرب أمر العدالة أيما اضطراب مع ان الاصل لهذه المذاهب واحد وهو الدين الاسلامي المبين

لهذه العلة الخطرة كان الصحابة الكرام لا يستنكفون عند الاستفتاء من أحدهم أن يحيل بعضهم على بعض أو يستشير بعضهم بعضا في تقرير الحكم كما ثبت ذلك في كتب السنة خوف الوقوع في خطأ يجر الى مظلمة أو اثم ولاسيما فيما يحتاج إلى الاجتهاد ما لم يستشر خاصة المسلمين

***

قلت فيما سبق ان الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم شرع لنا مراعاة المصلحة ولو مع وجود النص واقتدى به الصحابة الكرام في العمل بهذه القاعدة وبيانا لهذا أقول :

لما كانت الشرائع مبنية على درء المفاسد وجلب المصالح والشريعة الاسلامية أحرى الشرائع برعاية هذين الامرين فقد سن الشارع ايقاف العمل بالنص مراعاة للمصلحة ولكن عند الضرورة القصوى وثبوت المصلحة ولزومها على وجه لا يقبل الشك في أن المصلحة التي تترتب على العدول عن النص اكبر من المصلحة التي تترتب على العمل به واستن بسنته صحابته والخلفاء الراشدون من بعده فكان ذلك شرعا أيضا فيه تيسير عظيم على المسلمين واليكم الدليل :

في حديث لابي داود أن رسول الله نهى أن تقطع الايدي في الغزو . وانتم تعلمون أن القطع حدٌّ من حدود الله لم يستثن النص القرآني منه الغزاة لكن النبي نهى عن اقامته في حال مخصوصة خشية أن ينشأ عنه مضرة وهي لحاق صاحبه بالعدو وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم عدة اخبار أخرى من هذا القبيل لا محل لذكرها هنا وهي مبسوطة في كتب الحديث

وقد استنّ الصحابة بسنته وأوقفوا الحدود في أحوال مخصوصة تدعو اليها الضرورة

جاء في كثير من كتب الاخبار ان عمر كتب الى الناس ألا لا يجلدن امير جيش ولا سرّية ولارجل من المسلمين حدا وهو غاز حتى يقطع الدرب لئلاتلحقه حمية الكفار

وروى ابن القيم في إعلام الموقعين عن ابن حاطب بن أبي بلتعة ان غلمة لابيه سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأتى بهم عمر فأقروا فأرسل الى عبد الرحمن بن حاطب فجاء فقال له ان غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة وأقروا على انفسهم فقال عمر يا كثير بن الصلت اذهب فاقطع ايديهم فلماولى بهم ردهم عمر ثم قال أما والله لولا اني اعلم انكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى ان احدهم لو اكل ماحرم الله عليه حل له لقطعت ايديهم وأيم اللهإن لم افعل لا غرمنك غرامة توجعك ثم قال يامزني بكم اريدت منك ناقتك؟ قال بأربع مئة قال عمر (اي لعبد الرحمن) اذهب فأعطه ثمان مئة

وغير هذا فقد أسقط عمر الحد في عام المجاعة للضرورة وتجاوز ابو بكر عن خالد بن الوليد في حادثة مالك بن نويرة اذ قتله دون تثبت من اسلامه كما تجاوز عنه رسول الله قبل ذلك بما صنعه ببني جذيمة لما أرسله داعيا لا محاربا فذهب اليهم وحاربهم وقتل وسبى منهم فبرئ رسول الله من عمله الى الله ولم يؤاخذه به وماذلك الا لحسن بلاء خالد في الحروب وخدمته العظيمة في الاسلام

وكذلك أسقط سعد بن أبي وقاص الحد عن أبي محجن في حرب القادسية في خبر مشهور طويل لامحل لذكره هنا وقال والله لا أضرب اليوم رجلا أبلى المسلمين ماأبلاهم

والشواهد على هذا من أعمال النبي وأصحابه كثيرة لا يتسع لها مقام الخطابة ولعل هذه القاعدة سوغت بعد لبعض الحكومات الاسلامية التجاوزعن الحدود والعقوبات البدنية كالسن بالسن والعين بالعين واستبدلت بها العقوبات الادبية كالحبس والتغريم مثلا للضرورة تغير الزمان أو لفشو المنكرات فشوا لم ينجع في تأديب مرتكبها الا حبس حريتهم في السجون أو غير ذلك من الدواعي والاسباب الزمانية ليس فيما ذكر غض من مقام الشريعة أو مس لاصولها المقدسة مادام من أصولها

وقواعدها أيضا العدول عن النص عند ثبوت المصلحة أو درء المفسدة بأقل ضرراً منها والشريعة كما تعلمون مبنية على المصلحة وقد سبق الله تعالى رسوله والائمة من بعده الى تقرير قاعدة مراعاة الاصلح وهو مايسمونه النسخ وما هو بنسخ وانما هو تقرير حكم اقتضته مصلحة زمان وحال غير حكم آخر في زمان تقدمه وأحوال اقتضته كحكم جهاد المشركين من العرب في مبدأ امر الدعوة لحمايتها وحماية المسلمين من اعدائهم واعدائها وفيه الاذن بقتالهم حتى يقولوا لا إله الا الله ثم تقرير حكم آخر بعده أي بعد ان انتشرت الدعوة وقوي جماعة المسلمين وصاروا في مأمن من غائلة الضعف وهو حكم الدعوة بالتي هي احسن كما في قوله تعالى (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقوله (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ) وقوله (افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة

وكحكم النهي عن الصلاة في حال السكر في قوله تعالى (لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) وكان هذا في احوال اقتضته ثم جاء حكم التحريم بتاتا في احوال اقتضته ايضا

و بالجملة فان ملخص ماتلوته عليكم ينحصر كله في المقدمات الآتية :

(الاولى) ان القضاء في العصر الاول كان مرجعه نصوص الشريعة أي اصولها التي قررها الشارع واجتهاد الصحابة والتابعين فيما لم يرد به نص

(الثانية) ان الاحكام التي جاءت عن الشارع لم يكن في استطاعة فرد واحد حفظها او يتعذر على الواحد الاحاطة بها فاحتيج في القضاء الى استشارة حفاظها

(الثالثة) ان الصحابة كانوا قد يختلفون في المسألة الواحدة اما في تطبيق النص او مسوغ الحكم اذا كان اجتهاديا تثبتا من وضع الشيء في محله جهد الامكان

(الرابعة) انهم كانوا يعدلون عن النص عند الضرورة الداعية وفي احوال مخصوصة تدعو اليها المصلحة التي بني عليها الشرع اقتداء بالشارع

(الخامسة) ان ورعهم وتقواهم وخوفهم من الوقوع في الاثم كل هذا كان يدعوهم الى عدم الانفراد بالحكم ومشاركة خيار المسلمين وعلمائهم في تطبيق الاحكام اذا كانت اجتهادية على القياس الصحيح او الرأي السالم من خطأ الفرد

هذه المقدمات تنتج نتيجتين مهمتين احداهما أن القضاء في الاسلام كان قضاء الجماعة لاقضاء الفرد على نحو ماسبقت الاشارة اليه كثيرا

والثانية أن الشريعة الاسلامية بما تقرر فيهامن قاعدتي الاجتهاد ورعاية الاصلح كانت من الشرائع التي توافق كل زمان ومكان وتجيزلكل ضرورة حكما يوافق مقتضى المصلحة والحال وان خالف النص مع اعتبار هذه القاعدة شرعا أيضا خلافا لما يتقوله عليها المتقولون من أنها شريعة ضيقة توافق زمانا غير زماننا هذا ومكانا غير مكان الامم الراقية لهذا العهد فهي اذا صلحت لاهل ذلك العصر لاتصلح لعصر تسير شرائعه مع مقتضيات المدنية الحديثة وحاجتها سيرا تدريجيا في كل مايقتضيه ترقي المجتمعات .ومنشأ تقولهم هذا الجهل بحقيقة الشريعة الاسلامية وعدم الوقوف على أصولها وقواعدها وكلياتها يساعدهم على ذلك مايرونه من تعصب بعض علماء الشريعة المقلدين لما جاء في كتب الفروع دون الاصول وردهم لكل مالم يرد فيها من أسباب التيسير وان ورد في أصول الشريعة وكلياتها مع ان في كتب الفروع من الاحكام التي لاتستند الى دليل قطعي مالايعد ومبناها الاجتهاد أو الرأي والقياس ومع هذا فانهم يفضلون العمل بهذه الاحكام على الرجوع الى أصل الشريعة مهما كان فيها من التقليد والتضييق على أنفسهم والامة ومهما ترتب على ذلك من التهم الباطلة التي يرمينا بها الباحثون في طبائع الاجتماع

وحجة هؤلاء العلماء في هذا سد الذريعة أو خوف انتشار دعوى الاجتهاد اذا فتح بابه وتطرق الفساد الى الشريعة وهي حجة معقولة ومسلمة لايخالفهم فيها عاقل لكن فيما لو صارت قوة التشريع أو الاجتهاد الى الافراد وأطلق العنان لكل قائل أن يقول هذا حكم الله ورسوله ولكل حاكم أن يحكم بما يرى ويقول

ومعاذ الله أن يريد هذه الفوضى للشريعة الاسلامية عاقل قط وانما المراد أن ينظر في المسائل التي يقتضيها تغير الزمان وتجدد المصالح والحاجات على شرط عدم الوقوع في ذلك المحذور الذي يخشاه العلماء وذلك بأن تناط قوة التشريع أو الاجتهاد على المسائل الطارئة في كل عصر بجماعة من أهل العلم الواقفين على دقائق الكتاب

والسنة والعارفين بحاجات الامة ليقرروا لها الاحكام الموافقة لمقتضى الحال ثم تنال هذه الاحكام تصديق أهل الحل والعقد فتصبح قانونا وسيما يتحتم العمل به في الحكومة الاسلامية التي هي في حاجة اليه لا يعدل عنه الى غيره من أقوال الفقهاء والعلماء وان مجتهدين فتضبط بهذا قوانين الشريعة ويؤمن عليها من تطرق الفساد ثم يكون من ذلك ان تحدد هذه القوانين تحديدا يغني عن الرجوع الى كتب الفقه التي تختلف في المسألة الواحدة اختلافا كثيرا يؤدي في كثير من الاحيان الى التهويش على القضاء ويكفي ان تكون تلك الكتب شروحا لقوانين الشريعة المعمول بها يومئذ يرجع اليها عند الضرورة والحاجة الى تفسير نصوص ذلك القانون كما هو الشأن في مجلة الاحكام العدلية المعول عليها في محاكم الدولة العثمانية دون غيرها ولهذا البحث تتمة سأتي عليها في الكلام على القضاء في دوره الثاني وها أنا ذا متكلم فيه :

* * *

قلت فيما سبق إن القضاء في الاسلام له دوران دور العمل بالاصول ودور العمل بالفروع وانما اخترت هذا التقسيم لاختصار الطريق أو اختصار البحث خوفا من تعب القارىء والسامع مع ان أدواره بعد دور التشريع الاول كثيرة جدا اذا اعتبرنا تقسيمه الى طبقات المفتين والمحدثين من الصحابة والتابعين ثم الائمة المجتهدين ومن بعدهم من طبقات الفقهاء والمقلدين من اتباع كل مذهب نعتبر ذلك بما قسموا اليه طبقات الحنفية مثلا فقد قالوا انهم ينقسمون الى ست طبقات : الطبقة الاولى طبقة المجتهدين في المذهب كأبي يوسف ومحمد وغيرهما من أصحاب أبي حنيفة القادرين على استخراج الاحكام من القواعد التي قررها الامام .

والثانية طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب كالخصاف والطحاوي والسرخسي والحلواني والبزدوي وغيرهم وهم لا يقدرون على مخالفة امامهم في الفروع والاصول لكنهم يستنبطون الاحكام التي لا رواية فيها على حسب الاصول

والثالثة طبقة اصحاب التخريج القادرين على تفصيل قول مجمل وتكميل قول محتمل من دون قدرة على الاجتهاد

والرابعة طبقة أصحاب الترجيح كالقدوري وصاحب الهداية القادرين على تفضيل بعض الروايات على بعض بحسن الدراية

والخامسة طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين القوي والضعيف والمرجح والسخيف كأصحاب المتون الاربعة المعتبرة

والسادسة من دونهم الذين لا يفرقون بين الغث والسمين والشمال واليمين

فلو تتبعنا الكلام على هذه الطبقات والادوار التي مرت على الشريعة بالتفصيل لاحتاج ذلك الى كتاب مطول ورجل اعظم رسوخا مني في العلم و وقوفا على تأريخ القضاء لذا حصرت الكلام على القضاء من الوجهة الاجمالية في دورين واذ قد مضى الكلام على الدور الاول فها أنا ذا أتكلم على الدور الثاني على قدر ما يمكنني من الاختصار

●●●

لما اتسعت دائرة الفتح وانتشر الاسلام في الممالك القاصية وتفرق حفاظ الشريعة ورواتها في الانحاء مع اتساع دائرة القضاء بازدياد وسائل الحضارة واستبحار العمران وتجدد الحوادث التي يقتضيها تشعب المعاملات وحال الامم الداخلة في الاسلام من غير العرب وخيف لهذا من تشتت أحكام الشريعة ودخول الفوضى في القضاء والافتاء احتيج بالضرورة الى أمرين مهمين : الاول تدوين الشريعة في الكتب . والثاني وضع قواعد للتفريع عن اصول الشريعة لتطبيق الحوادث التي تحدث في احكام المعاملات على قوانين الشرع . وأول من تنبه للحاجة الى هذين الامرين على ما أظن عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الاموي وسدا للحاجة الاولى أمر الزهري من جلة التابعين وحفاظهم بتدوين الحديث في دفاتر وتوزيعها على الامصار في أواخر القرن الاول ففعل كما هو مشهور معروف

أما الحاجة الثانية فقد شعر بها ولكن سدها بعده الائمة المجتهدون بدليل ماروي

عن الامام مالك بن أنس انه قال قال عمر بن عبد العزيز : يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور

أدرك هـذا عمر بن عبد العزيز وأدركه الائمة المجتهدون من بعـده مالك والشافعي وأبو حنيفة واحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المذاهب التي لم يبق لها أتباع لهذا العهد كداود الظاهري وغيره وكأئمة الشيعة الذين يعمل بمذاهبهم الى اليوم زيد بن علي وجعفر الصادق وغيرهم فلم يكتفوا بتدوين السنة في الدفاتر والكتب بل رأوا الحاجة تدعو الى البيان والتفصيل والتفريع والترتيب فعمدوا الى النظر في أصول الشريعة من الكتاب والسنة فاستخرجوا منها الاحكام ووسعوها ورتبوها ودونوها كل على أصول مذهبه وقواعده وأصول الاجتهاد المعروفة في كتب الاصول مما لا يسعني بسطه الآن وكلكم أعرف مني به فضبطوا بذلك قوانين الشرع بما بلغه اجتهادهم وأدى اليه جهدهم فكانت كتب كل مذهب شرعا يعمل به أتباعه الى اليوم

ولسنا بصدد اطراء هذا العمل الجليل الذي قام به أولئك الائمة الكبار وحسب هذا العمل أو هذه الخدمة التي خدموا بها الامة والشرع انها تصون منزلة الافتاء والقضاء عن متناول كل من ادعى أن عنده مسكة من العلم بالدين والوقوف على السنة هذا لو أحسن العلماء بعد العمل بقوانين الفقه

نعم قد انتقد كثير من أئمة السلف ماصار اليه الحال بعد وضع كتب المذاهب من ترك أصول الشريعة والذهاب مع التقليد البحث لكن لم يكن هذا الانتقاد موجها الى الائمة المجتهدين الا فيما أخطأ فيه اجتهادهم وانما كان جل الانتقاد موجها الى من جاء بعدهم من الفقهاء والمقلدين لتنزيلهم كلام الائمة منزلة اصول الشريعة والعمل بأقوالهم ماأصاب منها وما أخطأ بلا بحث في الدليل مع أن الائمة انفسهم نهوا عن العمل بقول من أقوالهم دون معرفة دليله من أصول الشريعة كما تعلمون

أراد الائمة المجتهدون أن تكون طريقتهم في التفريع مهما يسير فيه العلماء في قياس الحوادث بعضها على بعض وردها الى اصولها عند تجدد الحوادث سـدا لحاجة المتقاضين . وأطالوا في الاستقصاء والبيان والتفريع كي لايدعوا وجها لتهجم كل أمرىء

على أصول الشريعة من الكتاب والسنة ليفتي بعلم و بغير علم فيصير القضاء الى الفوضى والتشتت بعد انقراض طبقة حفاظ الشريعة من التابعين وتابعي التابعين واتساع دائرة الاسلام اتساعا يفتقر معه المسلمون الى قوانين قريبة التناول من الفهم • لكن أساء من جاء بعدهم من اتباعهم من العلماء فهم النية فألقوا بأنفسهم في نفس الخطر الذي أراد اتقاءه الائمة المجتهدون اذ ساروا في سبيلين متباينين سبيل التضييق على أنفسهم الى مالا يبلغ بهم أدنى الحد وسبيل التوسع الى مايتجاوز كل حد !

حرموا في الاول على أنفسهم الاجتهاد ولو في المسائل التي تدعو اليها الضرورة والمصلحة العامة التي هي من قواعد ومقاصد الشرع الاسلامي فكان من ذلك ان أحرجوا الامة والجأوا بعض الحكومات الاسلامية لهذا العهد الى العمل ببعض القوانين المقررة عند الامم الاوربية خصوصا الجنائية والتجارية

وتوسعوا في الثاني حتى ملأوا بطون الكتب بالحواشي والشروح يؤتى فيها بعدة أقوال في المسألة الواحدة ولو تافهة أو من قبيل تقدير المستحيل وكل هذه الاقوال تعتبر شرعا أو شريعة وتركوا العمل بالصحيح منها أو الاصح أو المفتى به أو المعول عليه الى رأي القضاة فكان من ذلك ان اطلقوا قضاء الفرد العنان بلا شرط ولا قيد فوقعوا وأوقعونا فيما أراد دفعه الائمة المجتهدون وحرم المسلمون من قضاء الجماعة الذي هو كفيل بالعدل وذلك منذ انقضاء العصر الاول الى اليوم

نعم إن اختلاف الاقوال في المسألة الواحدة وكثرة الحواشي والشروح على القوانين والشرائع موجودة عند كل أمة فالقانون الفرنسي مثلا له شراح من المتشرعين وأشهرهم دالوز وكار بانتيه وسيريه وغيرهم كثيرون الا أن القضاء عند تلك الامم لما كان بيد الجماعة وقوة التشريع ليست من حق فرد من الافراد بل من حق الامة ونوابها فدستور العمل عندهم ما أجمعت على وضعه قوة التشريع وصادقت على قبوله الحكومة فصار قانونا للقضاء لا يعدل عنه الى تلك الحواشي والشروح وآراء المتشرعين و يصار اليها الا لتفسير مبهم أو تطبيق الحوادث بعضها على بعض

لشريعة المسلمين أصول وكليات كما قلنا في صدر الكلام تعتبر أساسا للتشريع ومع أن أحكامها مسلمة فقد كان العمل بها في عهد الصحابة بالشورى بين المتفقهين

منهم هذا فيا نص منها على مايردعليهم من النوازل فا بالكم فيا أحتاج الى الاجتهاد والتشريع بالقياس على تلك الاصول أو الاستنباط منها وقد سمعتم فيا مر أنهم كانوا لايحكمون حكما الا بعد استشارة خيار الامة وعلمائهم واقرارهم جميعا على ذلك الحكم حتى اعتبر بعض الائمة المجتهدين بعض احكام الصحابة لقوتها شرعا أو أصلا من الاصول التي يبني عليها التفريع سموه عمل الصحابة أواجماعهم كاسبقت الاشارة اليه وكما ترون ذلك في كتب الاصول

اذا كان اجماع الصحابة على مسألة شرط في صحتهاواعتبارهاشرعايلزمنا العمل به فقد لزم من هذا أمران :

الاول ان اجماع الجماعة على تقريرحكم في مسألة شرط في صحة ذلك الحكم واعتباره شرعا لزمنا العمل به وهو ماتفعله الامم الاوربية في تقنين قوانينهالهذا العهد وقد وجد له اصل في الشرع الاسلامي فتركناه وأصبحنانغبط الامم الاوربية وقوانينها أو قضاء الجماعة عندها لهذا اليوم

والامر الثاني أن كل اقوال الفقهاء واختلافاتهم الواردة في كتب الفروع ليست بشرع الا من حيث اشتمالها على أحكام يرد بعضها الى أصول الشريعة إلا أنه غير متوفر فيها شرط التشريع الذي مر . وإناطة ترجيح قول دون آخر من حيث قربه من الاصل بشخص واحد لا يكسب هذا القول أو الحكم قوة التشريع ليسمى شرعا أو قانونا وجب العمل به الا اذا اتفق عليه وقرره جهور من المتشرعين أو المرجحين وهذا ما أردته من وجوب بقاء الاجتهاد لكن لا ليتناوله من شاء فيماشاء ! كلا بل ليناط بجماعة من علماء المسلمين تقرير الاحكام التى تدعو اليها المصلحة وتتجدد بتجدد الزمان

ولذا فان اجتهاد الجماعة كما انه لازم في الاصول فهو لازم في الفروع أيضا وذلك لجمع اقوال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم مأأصاب من تلك الاقوال محجة الصواب والمصلحة ووافق اصول الشريعة من الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح في كتاب بعينه يعتبر قانونا في المعاملات مجمعا عليه من العلماء ليعرف منه كل مسلم ماله من الحقوق وماعليه لاتتقاذفه أقوال الفقهاء من خلاف لآخر ومن قول

لنقيضه فتصير به الى اهواء القضاة والمفتين يحكمون بما ترجح لديهم وبما يشتهون

وليس اختلاف المذاهب بمانع من أن يحكم للشافعي أو عليه بقول للحنفية أو للمالكي بقول للشافعية مثلا اذ كل أتباع المذاهب أبناء دين واحد وكل أقوال كتب الفقهاء مأخذها واحد وهو الشرع والواقع يثبت أن أحكام المعاملات كانت في أ كثر الممالك الاسلامية ولم تزل الى اليوم جارية في القضاء على مذهب الدولة الحاكمة وربما كان ا كثر الرعية من أتباع مذهب غير مذهبها

ومع هذا فليس ثمة نكير من العلماء على أهل الدولة فلا سبيل لهم الى النكير على القائلين بلزوم جمع الاقوال الموافقة لمقتضى المصلحة والعصر من كتب المذاهب وجعلها قانونا جامعا في المعاملات للمسلمين بل هذا خير وسيلة لاصلاح القضاء وبما اغتفرت للفقهاء ماضي تفريقهم وحدة الامة باسم التعصب للمذهب وكانت خاتمة اضطراب نظام القضاء في الاسلام

ليس اضطراب حبل القضاء في الاسلام بجديد وليس الظلم والعسف الذي لاقاه المسلمون من حكامهم الظالمين وحكوماتهم الجائرة الا نتيجة توكئهم على ضعف القضاء خصوصا ما يتعلق منه بولاية المظالم لا لنقص في الدين أو الشريعة بل لنقص في طرق التقنين والتنفيذ

إن الدين الذي ينزل على الظالمين صواعق الانذار ويقرن الظلم بالشرك بالله تعالى ويأمر باقامة ميزان العدل ويريد سعادة المجتمع الذي يدين به ما كان ظالما ولن يكون وانما المسلمون أنفسهم يظلمون

وربما يطالبني كلكم أيها السادة بدليل على قولي ان اضطراب نظام القضاء وما نشأ عنه من الجور ليس بجديد في الاسلام وهذا الطلب من حقكم بعد هذا الكلام واليكم دليلا واحدا ا كتفي به عن أدلة لو أحصيت لكانت كتابا ليس كالكتب مما تقرءون

تعلمون أن أحفل العصور الاسلامية بالعلماء والمفتين والفقهاء والمتشرعين وأرقاها في سلم المدنية الاسلامية عصر هارون الرشيد العباسي اذ الشريعة في إبان

زهوها والتفريع في مبدأ مجده والأئمة المجتهدون هم القائمون بالتشريع والى كتبهم ترجع الفتوى

في ذلك العصر الزاهر بمجد الاسلام وأمجاده العظام يرى أبو يوسف صاحب أبي حنيفة من ضعف القضاء وتسلط عمال الجور واضطراب نظام ولاية المظالم مايلجئه الى وضع كتاب الخراج لامير المؤمنين هارون الرشيد وليس فيه الا آية أوحديث أو مثال من قضاء الصحابة أي كلام من أصول تلك الشريعة الطاهرة يذكره فيه بالرجوع الى قضاء الله ورسوله واصحابه أو قضاء الجماعة المتين قائلا : ارجع يا أمير المؤمنين الى هذه الاصول في سياسة الرعية وجباية الخراج وتوزيع الفيء، اقعد يا أمير المؤمنين بنفسك للمظالم وإنصاف المحكوم من الحاكم، ادرك الزراع فقد كاد يهلكهم الظلم فقد بلغني عن عمالك انهم يقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد وانهم يفعلون بهم ويفعلون مما لا يحل لهم بوجه من الوجوه !.

هكذا كان الحال في عصر الرشيد وأئمة الشريعة أحياء يرزقون فما بالكم بما جاء بعده من العصور التي صار فيها التشريع الى عدد لا يحصى من المخرجين والمرجحين والفقهاء والمفتين وكلهم يقول قولي أو قول فلان هو شريعة الله المفتي بها والمعول عليها وما هو الا تفكك نظام القضاء وتشتت قوة الجماعة فلا حول ولا قوة إلا بالله !

والنتيجة أيها السادة أن ضمان العدالة الوحيد انما هو قضاء الجماعة لا قضاء الفرد وأعني ان التشريع وحده غير كفيل بالعدل في القضاء إلا اذا أنيط كلاهما بالجماعة بالوضع والتنفيذ . ولا تظنوا ان هذا «المطربش» الواقف أمامكم يريد شيئا جديدا في الدين أو قلبا لكيان الاحكام مع انه ليس من علماء الدين ولا أئمته المجتهدين

كلا فليس قضاء الجماعة بجديد في الاسلام بل هو من عصر الصحابة وهم واضعو أساسه المتين في الدور الاول للقضاء في الاسلام

أما الدور الثاني فالذي أذكره أن دولتين من دول الاسلام تنبهتا اليه وعولتا

عليه اولاهما دولة الامويين في الاندلس التي جعلت في القرن الثالث دارا في قُرطُبَة لشورى القضاء اعضاؤها من جلة العلماء يرجع اليهم في تقرير الاحكام

والحق أقول اني لم أظفر بكثير بيان عن هذه الشورى لكن مارأيته عنها في ثنايا الكتب التأريخية يكفي للدلالة عليها فقد ورد ذكرها في نفح الطيب في ترجمة بعض العلماء كقوله كان فلان مشاوراً وطلب فلان الى الشورى فأبى ونقل اليّ ثقة عن كتاب من الاسف انه غير موجود بين يدي بل هوفي مكتبة دمشق وهو كتاب الاحكام للقرطبي وردفيه ذكرهذه الشورى بقوله: انالشورى خالفت الامام مالكا في عدة أحكام أخذت فيها بقول أبي القاسم

وفي هذا دليل كاف على انه كان لديهم سلطة في التشريع وان الدولة الاموية ثمة كانت مسددة الاعمال حتى قبيل وهنها وسقوطها حريصة على اجراء قوانين العدل بين رعيتها

أما الدولة الثانية التي تنبهت الى مثل ماتنبه اليه الامويون فهي الدولة العثمانية لهذا العهد فانها جمعت من علماء الامة وفقهائها الموثوق بفضلهم وعلمهم جماعة سمتهم جمعية المجلة وذلك من بضع وثلاثين سنة انتخبوا من كتب المذهب الحنفي قانونا جامعا لاحكام المدنية وهو المعروف بمجلة الاحكام العدلية وأقر على العمل به أهل الحل والعقد فصار مرجع القضاء في المحاكم الى اليوم وستجتمع هذه الجمعية أيضا لادخال بعض الزيادة والتحرير عليه مما مست اليه الحاجة ولو بأخذه من غير المذهب الحنفي

هذا مجمل تأريخ القضاء في الاسلام وما تخلله من الشؤون بسطته لديكم مع رجائي ان تصفحوا عن كل خطأ بدر مني أو تردوه ولو سمح الوقت لاتيت على شيء كثير من كيفية تقسيم ولاية القضاء وترتيبها ومحاسن الفقه الاسلامي وما انتقد عليه وانه لو أحسن العلماء العمل به لكان لنا منه قانون جامع لاحسن قوانين الامم المدنية وربما أعود الى هذا البحث في فرصة أخرى ان شاء الله

تصنيف كتب في الكلام ملائمة لحاجة العصر

توحيد المذاهب الاسلامية

﴿ اصلاح نظام التعليم في المدارس الدينية ﴾

ألقى أستاذنا الفاضل موسى كاظم افندي العضو في مجلس الاعيان ، والاستاذ في مدرستي الحقوق والقضاة — محاضرة في هذه الموضوعات الثلاثة ، فضبطها عنه حضرة الاديب حسين أشرف بك أديب صاحب مجلة «صراط مستقيم» التركية ، فرأيت أن أترجمها لقراء مجلة المنار النافعة بما يأتي :

كان الراسخون في العلم من أهل الصدر الاول للاسلام يكتفون بظاهر المعنى الذي دل عليه الكتاب والسنة ، ويرجعون الى صاحب الرسالة في كل ما يشتبهون به من المسائل على عهده . ولهذا لم تضطرهم الحاجة الى وضع المصنفات ومراجعة الاسفار

ثم ظهر الاختلاف على عهد التابعين ، فرأوا أن يدونوا الكتب احتفاظا بوحدة الدين من وقوع التفرقة ، وبعدا بها عن مزالق الانشقاق وفقدان القوة — اذا تشتت آراء ذوي الرأي ، واختلفت أنظار أهل النظر ، وهنالك الطامة الكبرى ، والخسران العظيم

فأخذوا يدونون العلم ، وأكثر مادونوا كان في علم الكلام ، لانه هو منشأ الخلاف ، فكان لذلك فائدة عظيمة

على أن الفلسفة لم تكن قد دخلت بادئ بدء في المصنفات الاولى ، لان الامة لم تكن قد عاتها بعد ، بل كانوا يبرهنون على مذاهبهم بنص من الكتاب

والسنة ، وهي طريقة علماء السلف ، ولم يكن ذلك العصر في حاجة الى أكثر من ذلك

ثم انتقلت علوم الفلسفة الى العربية ، فتشعبت الآراء طرائق ومذاهب ، وعرف أبناء هذه اللغة لاول مرة ماهية مذهب « الفلاسفة المشائين » وآراء « الفلاسفة الطبيعيين » ، وأخذوا يدخلون فيها ، ويقولون بقول أصحابها على قلة عددهم ، لولا أن المشائين تغلبوا على الطبيعيين من حيث اقبال الطالبين على كتبهم ، حتى اضطر علماء الدين الى مناهضتهم جميعا ، وانتقاص ما لهم من السلطة والنفوذ في قلوب الدارسين والمفكرين ، ومن الردود على المشائين والاشراقيين تألف علم الكلام ممتزجا بالفلسفة كما قضت الحاجة . لان علماء الكلام كانوا يدرسون كتب الفلاسفة أولا ، ثم يردون عليها ، الى أن كسدت سوق « الفلسفة الاشراقية » ، وكثر انتقاد اقوال المشائين فدالت دولتها ، وانقرضت سلطتها ، ولم يبق لها ولي ولا نصير

لم تكد تلقي هذه الحرب أوزارها ، حتى كان لعلماء الكلام من ظهور « الماديين » في هذا العصر ميدان آخر للنضال والكفاح ، فهؤلاء يجب أن نشتغل اليوم كما كان اسلافنا يشتغلون بالطبيعيين والمشائين والاشراقيين بالامس

ورب قائل يقول : كيف يجوز لنا أن نزيد من عندنا في علم الكلام مالم ينص عليه من قبلنا ؟ أوليس من الواجب علينا ان نتبع الاولين في ماقالوه . ونسلك السبيل الذي انتهجوه ؟

فنجيبه بأن الفلاسفة الذين عني السابقون من المتكلمين بتزييف أقوالهم لم يبق في زماننا من يذهب الى صحة نحلهم ، واذا كانت براهين اسلافنا سلاحا قاطعا لتلك المزاعم ، فأين من يحاربنا لنصده بها ، وهذا الميدان خال منهم على حين نرى جهة أخرى غاصة بأعداء آخرين لا يعمل فيهم ذلك السلاح ، أو هو لا يقابل الاسلحة التي يستعملونها ، والحاجة ماسة إلى اختراع سلاح آخر يصلح أن نقابلهم به .

لا يوجد اليوم علماء معروفون يقولون إن العالم ثلاث عشرة طبقة كرية الاولى تراب والثانية ماء والثالثة هواء والرابعة نار والافلاك بعد ذلك تسعة متواليات بعضها فوق

بعض وانها أزلية أبدية في نوعها وفي جنسها ، وهي بهذا الاعتبار قديمة .

فاذا قلنا للفلاسفة اليوم : انكم كنتم تزعمون قبل عصور أن الارض وما عليها قديم ولدينا حجج تدحض مدّعاكم وتبرهن على حدوث الارض وماعليها، أجابونا قائلين : كلا نحن لا نقول بقدم الارض ، بل نذهب إلى ماتذهبون اليه من أنها حادثة .

ومن منهم يصغي الينا إذا قلنا له : إنك تقول برأي بطليموس من أن الافلاك تسعة متداخلة أزلية أبدية . وهو يرى « أن هذا الفضاء لانهائي ، ولا نهاية لما فيه من الاجرام ، وهي حادثة من حيث صورها ، ولا قديم فيها إلا اجزاؤها الفردة » وربما سخرمنا عندما نبرهن له على فساد مالا يعتقد صحته .

فمن الواجب علينا إذاً اصلاح الدروس الكلامية وفقاً لحاجة هذا العصر وأهله ، ووضع مصنفات جديدة في دحض مذاهب هذه الازمان . وأن نعلم أن الدين لا يناضل عنه اليوم بسلاح الامس ، لما بين المدوين من البون الشاسع والفرق العظيم .

كان المشاؤن يعترفون بوجود الله تعالى وأنه العلة الاولى ، وواجب الوجود ، ولكنهم كانوا يقولون: هو فاعل مضطر ، لا فاعل مختار . أما الماديون في هذه الايام فلا تنفعهم براهيننا على ذلك لانهم لا يسلمون بوجود الله سبحانه . وكان الحكماء يقولون : ان الله واحد حقيقي . و باطل وصفه بتلك الصفات المتعددة لانها تنافي الوحدة . فهو قائم بذاته ، عالم بذاته ، قادر بذاته ، مريد بذاته ، والعلم عين الذات ، والقدرة عين الذات ، إلى غير ذلك من الصفات الاخرى . وبهذا قالت المعتزلة .

أما الماديون فهم يضحكون منا إذا برهنا لهم على أن الله عالم بعلمه، قدير بقدرته مريد بارادته : لاننا متخالفون معهم من حيث المبدأ الذي يجب علينا ان تقربهم الينا فيه بوضع كتب حديثة تصلح لاقناعهم ، ولا يتسنى لنا ذلك إلا بدرس فنونهم ، وإلزامهم بأقوالهم وآرائهم .

***

وبعد فان الاسلام قد مني باختلافات ذهبت بأهله مذاهب كثيرة باد أكثرها وبقي بعضها ، فالشافعية والحنبلية والمالكية يخالفوننا نحن معشر الحنفية بالفروع وإن

كانوا كلهم أهل سنة . فمن الواجب علينا ان لاننزل هذا الاختلاف بمنزلة الخصومة فنعد الشافعي خصما لنا، بل الصواب أن نرى لنا مالنا ، ويرون لهم مالهم. وربما كان الحق في جانب أحد الطرفين مرة ، وفي الجانب الآخر تارة أخرى . لان المسألة مسألة اجتهاد ، والاجتهاد يبنى على الادلة الظنية التي يستدل بها كلا الطرفين ولافرق في ذلك بينهما. ولذلك نصوا على ان الاجتهاد لاينقض بالاجتهاد .

كانت هذه الحال مدعاة للتفرقة وانشقاق القوة ، ومباينة لما أمر الله به من الاعتصام بحبل الاتحاد والاجتماع، وما أشد ضرر التخاصم في المذاهب والفروع ؟...

وفي الاسلام اليوم غير هذه المذاهب مذهب آخر وهو مذهب الشيعة ، والعداوة بينهم وبين السنيين شديدة ، وفي نظري ان هذا العداء أمر منكر يجب إزالته ليتسنى للمسلمين أن يتحدوا وإلا التهمهم الغرب قبل مرور نصف عصر، وكانت القاضية على المسلمين اجمعين .

اجل! يجب علينا أن نعتصم جميعا بحبل الله، ونتحد مع كل قائل بوحدة الله، ونبوة رسول الله، ونحاول بعد ذلك تقويم الاود، وإرجاع المنحرفة إلى أصلها ، ومجادلة أهل المذاهب الاخرى لا كما يجادل العدو العدو، بل بالتي هي أحسن ، وذلك بأن يجتمع العلماء من كل فريق، ويقول بعضهم لبعض : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم نتجنب ماتقوم الحجة على بطلانه، ونعمل بما تبرهن الادلة على صحته. وفي يد كلا الفريقين كتاب الله يؤمنان به وبمن أنزله وبمن نزل عليه . وبهذا ينجو المسلمون مما مُنوا به من التفرقة والانشقاق، وأنا الكفيل بأن المسلم لايلبث أن يذعن للحق ولو مهما بعدعنه .

واني أقص عليكم هنا تفاصيل مناظرة دارت بيني وبين أحد علماء الشيعة وكان متعصبا وعلى مكانة من الجد في وقت واحد . فبادرته أنا سائلا :

— أين هو موضع النزاع بيننا وبينكم ، وفيم ترتابون من عقيدتنا ؟ فأجابني :

— الخلافة هي موضع النزاع . . . قلت له :

— إن هذه المسألة في رأيي ليست مما يستحق النزاع . قال :

— كلا بل هي ذات شأن عظيم لا ينكر فهي التي قضت على الاسلام ،

وشتت شمل المسلمين ، وقلبت بالدين رأسا على عقب ... إن الخليفة بعد النبي كان يجب أن يكون عليا . فأجبته :

— تلك دعوى لا نسلم بها ما لم يقم على صحتها برهان ساطع ، فما هو برهانكم على ذلك ؟

وهاهنا عدد اشياء كثيرة كانت كلها واهية في نظري . وبعد أن أصغيت إليه كثيرا قلت له :

— ليس كل هذا مما يتألف منه دليل واحد ، لان ماقلته لا يفيد إلا الظن ، و إن الظن لايغني من الحق شيئا . أنت سردت على مسامعي قضية هي من المطالب اليقينية ، وأنى لمثلها من مسائل الاعتقاد أن يبرهن عليه بشيء من الظن الذي ربما كان مقنعا في مسائل الفروع

فترك صاحبنا هذه السبيل وانتهج منهجا آخر تكلم فيه اكثر مما تكلم من قبل ولكن هذا أيضا كان واهيا . فقلت له حينئذ :

إني أدعي انه لم يؤثر عن النبي قول يستدل به على تعين خليفة باسمه ، و برهاني على ذلك أنه لو كان ثمة قول صريح في هذا الباب لما اختلف الصحابة في ذلك الامر ، وهم على ما هم عليه من التمسك بسنته ، والخضوع لطاعته

أجل ! لم يصرح النبي بذلك لان المهاجرين والانصار وقع بينهما على الخلافة اختلاف كان من نتيجته أن قال الانصار : « منا أمير ومنكم أمير » فدحض الصديق ماطلبوا بحديث « الائمة من قريش » فأجابوه : إذًا لم يبق بيننا مدعاة للخلاف بعد هذا . ومن ذلك تعلم أنه ليس ثمة صراحة قولية يستدل بها على تعين خليفة بشخصه ، و إنماهم رجحوا الصديق لتوليه الصلاة بالناس في مرض النبي ولم يرجحوا عليا ، وهذا ما أداهم اليه اجتهادهم .

وكان أبو بكر قد سمى عمر لولاية العهد قبل وفاته ، فلم يبق مجال للنزاع

وجعلها عمر شورى من بعده ، فوقع الاختيار على عثمان

ثم تولى منصب الخلافة من بعدهم علي

هذا كل ما في الامر ، فأين ما تذكره من أن هذه المسألة هي التي قضت

على الاسلام ، وقلبت الدين رأسا على عقب ... هل سلك ابو بكر غير منهج الرسول ؟ كلا . انه لم يفعل ذلك باعترافكم . وهكذا فعل عمر ، وهو الذي افتتح الاقطار ، وعلى يده دخلتم في الاسلام ، وأصبح المسلمون يحكمون بلادا فيها مئة مليون من النفوس . ومع كل ما كان له من النصر ، وللاسلام من المجد ، بقي في آخرته كما كان في أولاه يضن على قدميه بحذائين يخرج ثمنهما من بيت المال ! فما هو معنى « القضاء على الاسلام » حينئذ ؟

وهنا سكت صاحبنا ولم يفه ببنت شفة ، فواصلت كلامي قائلا : نحن نقدس هؤلاء لانهم لم يحيدوا عن خطة النبي قيد أنملة ، ومن الواجب على كل من في قلبه ذرة من ايمان أن ينظر اليهم بالنظر الذي ننظر به اليهم . فأجابني :

ان عليا كان على سعة من العلم والفضل ، وواقفا على سر الكتاب . قلت له :

ذلك مما لا ريب فيه . قال :

فلماذا اذا لم يجعلوه خليفة ؟ أجبته :

انت الآن تخرج عن الصدد . فقد عدلت عن زعمك الاول من أن الاسلام قد قضي عليه ، ورحت تقول الآن : كان الاولى تولية علي لانه كان أعلم وأفضل . فقال لي :

انك يا أخي لا تدع لي مجالا للافصاح عن رأيي . انني أقول : إن عليا واقف على سر الكتاب ولو كان اول خليفة في الاسلام لخدمه خدمات جلى ؟ ولتعالى الدين اكثر مما شهدنا . قلت له :

أنت غيرت دعواك . ومع ذلك فاني أقول لك : كان من الواجب عليه اذا كان الامر كذلك أن يبين تصوراته في اعلاء شأن الاسلام لمن تولى أمر الخلافة من قبله . وفي كل حال انه صار خليفة بعد ذلك ، وكان في وسعه أن يقوم بالخدمات التي تذكرها

وبعد أن أفضت البحث في هذا الباب أذعن مناظري للحق ورجع الى انصافه ثم قال :

الحق أقول ان هذه المسألة مسألة سياسية ، لا مسألة دين ، وما هي الاوسيلة جعلت في القديم لاحداث التفرقة بين فريق وفريق

فترى من هذا أنه مهما كان بين المسلم والمسلم من الاختلاف، يرجع احدهما الى الحق بعد ظهوره له، لان المسلم منصف على كل حال

و ياليت شعري كيف يجوز لنا أن نجعل الاختلاف في المذهب سببا العداوة ونحن كلنا مسلمون، في حين أن من المحظور على المسلم أن يجعل العداوة في قلبه حتى لغير المسلمين. حقا إن هذه حال قد سئمتها النفوس، ونتجت منها مضار، أزف الوقت الذي يجدر بنا فيه أن نقلع عن هذه البغضاء الشائنة، ونؤسس فيما بيننا و بين جميع الفرق المسلمة وغير المسلمة وحدة صحيحة، فيكون الاتحاد شعارنا في كل أين وآن. لان بالاتحاد نجاتنا، و بالاعراض عنه اضمحلالا

فمن الواجب علينا أن نضع كتبا في علم الكلام مؤسسة على مبادئ عدة. كأن ندرس مذاهب الفلاسفة المعاصرين، ونجادل اصحابها ولكن « بالتي هي أحسن» فبهذا يزول الخلاف، وتلك كانت خطة النبي(ص) في جدله

***

نحن نفكر اليوم في أمر اصلاح المدارس الدينية، وحسبنا انكم تقدرون هذا الاصلاح حق قدره. (الطلبة :- تلك حقيقة ناصعة فنرجو كم ان تثابروا على الاصلاح.) انكم إذا كنتم على غير رأينا في لزوم هذا الاصلاح، فليس في وسعنا ان نأتي بعمل، أما اذا عرفتم وجوبه، فهو أهم الاصلاحات في نظرنا.

يجب أن ندخل على نظام المدارس القديم خمسة من الفنون الحديثة أو أكثر، وأن نعدل ذلك النظام تعديلا هاما، فنبطل تدريس الحواشي والتقريرات بتة، ونعلم الطالبين المتون فقط، ولكن تعليما حقيقيا، ونتوسع كثيرا في درس اللغة والادبيات.

ترى ما هي الحواشي والتقريرات؟ هي انتقادات قواعد لغة لا نعرفها بعد. وأحر بنا أن ندرس تلك اللغة نفسها قبل أن نقرأ انتقاد قواعدها.

ولعل قائلا منكم يقول: نحن لا ندرس لغة العرب، بل ندرس كتبا انشئت بلغة العرب، وكان خيرا لنا لو ترجم القرآن الى التركية، فندرسه بلغتنا، كما يدرس العرب القرآن واليهود التوراة بلغتيهم (!!!).

فأجيب هذا القائل: إن ترجمة القرآن متوقفة على معرفة اللغة العربية معرفة تامة،

وهذا ماندعو اليه الطلبة والعلماء ونريد منهم أن يكونوا ذوي وقوف تام على هذه اللغة ، ولا يكون هذا الا بدرس المتون أولا ، والتوسع بالادبيات بعد ذلك جهد المستطاع .ولا بأس إذا رجع التلميذ بنفسه الى بعض الشروح عند مسيس الحاجة

ولست أدري كيف أعرض الطلبة قبلنا عن المتون وتعلقوا بهذه الشروح حتى اذا أتموها شرعوا بقراءة الحاشية فحاشية غيرها ثم بالتقريرات فتقريرات أخرى.وبعد أن يصرف الطالب أكثر من خمس سنين على هذا المنوال في كتاب واحد تمتحنه فيه فلا تجده على شيء!! ولا يقدر أن يفهم معنى سطر واحد من الشعر العربي.ذلك لانه بدد وقته بمناقشة ماقاله العصام وما نبه اليه عبد الغفور ، و بوجه التفهم من قوله (فافهم) عند ماتعرض مسألة من المسائل •

فكروا ياهؤلاء قليلا :يجتهد عالم بتلخيص القواعد في متن يسهل به على الطلبة سبيل الوقوف على أصول أحد العلوم ، فيجيء غيره بنقد ما كتبه ـ وهو حر فيما يعمل ـ ثم يجي آخر فينتقد الانتقاد !

نحن لا نعترض عليهم لانتقادهم ، فليبدوا رأيهم في مسائل العلم ، والانتقاد في الحقيقة فلسفة العلوم •ولكن الذي استقر به هو تسابق الشيوخ إلى هذه الحواشي والتقريرات مما تجادل به العصام وعبد الغفور ، بجعلونها كتبا مدرسية يقرأونها على الطلبة قبل أن يدرسوا أصول العلم نفسه ! •

اعترضوا علي ما أقول إذا كان لكم اعتراض !

نعم ! إن هذه الحواشي ليست مما يقرأ قبل درس قواعد اللغة ، وإنها مع ذلك لم تؤلف عبثا ، فان أصحابها لاحظوا من تأليفها تربية قوة المناقشة والانتقاد في نفوس الطلبة فصنفوها • وماعلينا الا أن نستعملها في الموضع الذي وضعوها له • ولقد كان من تحريفنا الاشياء عن مواضعها أننا ظللنا جاهلين اللغة العربية ، وإذا عرض لنا بيت من الشعر ، وقفنا أمامه باهتين ، ننتظر من عبد الغفور ومن العصام إمدادا فلا نرى من معين ! ثم نسعى لفهم البيت من كتب اللغة فيخفق سعينا لاننا لم ندرس الادبيات العربية•

وغاية الامر أن اصلاح المدارس يتوقف على درس متون العربية وكتب اللغة

والادب .ثم يلتفت الطالب الى الفقه والتفسير والحديث ،تلك العلوم التي أهملناها، لان الحواشي والتقريرات استغرقت منا كل وقت .

أتمنى من الطلبة كلهم أن يجتمعوا في مكان واحد،ويفكروا فيما يحوجهم لاصلاح مدارسهم ،و يستجلبوا برنامجات المدارس الدينية في مصر ،فان المدارس الدينية في ذلك القطر قد أصلح نظامها ،فأثمر التعليم فيها ثمرات شهية .و بعد الاطلاع على تلك البرنامجات يضعون لانفسهم برنامجا يوافق حالهم وحال العصر معا.ويكفل لهم التقدم في اللغة العربية ، ثم يبحثون في أي الفنون الحديثة أكثر لزوما لهم .

أما أمر معاشكم فنحن نكفله لكم . لان لكم أوقافا كثيرة جداً استولت عليها الايدي، وهي تغل لكل واحد منكم ثلاثة جنيهات مشاهرة، لو كان عددكم خمسة آلاف طالب.وعداذلك فان الامة لاتنسا كم . وماعليكم إلاأن تبرهنوا على كفاءتكم

ثم إنكم في حاجة إلى تعلم لغة أجنبية ،وليس في هذا مايخالف الدين،لانه ليس للدين لغة خاصة به

هذه اللغةالعربية بنت ستة آلاف سنة، والدين الاسلامي لم يكن إلامنذألف عام وزيادة .وهؤلاء مسلمو كريد لايعرفون العربية ولا التركية ،ولغتهم لغة يونان، فهل كان ذلك مانعا لاسلامهم .ونحن أنفسنا لغتنا التركية ، فهل نتركها لانها ليست لغة القرآن التي انزل بها .وهل اليهود من العرب مسلمون لان لغتهم عربية ؟كلا. واذا كانت العربية لسان الدين ولايجوز للمسلم أن يتكلم بغيرها، فنحن آثمون لاننا لم نترك التركية . وهذا مالايسلم به عقل ولم يرد به نص .

فالتركية من هذا القبيل لافرق بينها و بين الفرنسية والانكليزية ، لان هذه اللغات الثلاث كلها غير العربية، وعدا ذلك فنحن ندرس في جوامعنا باللغة التركية، فلماذا لاندرس بالفرنسية أيضا ؟ ولماذا لانتعلم في مدارسنا لغة أجنبية ؟فاذا قلتم : إن التركية لغة أمة اسلامية . اجيبكم: ان في الصين تركا أكثرمناعددا وهم كلهم مشركون

فتبين من هذا أن اللغة شيء والدين شيء آخر، وماالتعصب في هذا الباب إلا الجهل الذي يسخر من صاحبه الناس اجمعون .

محب الدين الخطيب بالقاهرة

(المنار) بعث الي ادارة المجلة بهذه المقالة المترجمة وانا في الآستانة لاري

رأيي في نشرها فلما قرأتها رجحت المقتضي على المانع وأذنت بنشرها ؛ أما المانع فهو انه قد سبق لنا في المنار بيان هذه المسائل الثلاث الاساسية التي بنيت عليها محاضرة الكاظم «تصنيف كتب في العقائد ملائمة لحال هذا العصر، وتوحيد المذاهب الاسلامية واصلاح التعليم في المدارس الدينية » بل هي من مقاصد المنار التي أبدينا وأعدنا القول فيها كثيراً، وكررناه تكريراً، فقراء المنار لا يستفيدون بنشر ترجمة هذه المحاضرة شيئاً جديداً في هذه المسائل التي طرقت مسامعهم وجالت في مباحثها أبصارهم وعلم أكثرهم ما لقي شيخنا الاستاذ الامام من العناء في محاولة إصلاح التعليم في الازهر والمدارس التابعة له . وأما المقتضي فهو ما يستفيده قارىء هذه المقالة من تشابه علل المسلمين وأمراضهم بل وحدتها ومن اتفاق آراء العقلاء وطلاب الاصلاح لها على اختلاف اللغات وتباعد الافكار ، فموسى كاظم افندي من علماء الآستانة قام يطالب في عهد الحرية ماسبقه اليه اخوانه من عقلاء العلماء في مصر والهند من غير تواطؤ بينه وبينهم ولا اطلاع منه على أقوالهم وأعمالهم ، فالمسلمون أمة واحدة مرضهم واحد وعلاجهم واحد وأطباؤهم هم العلماء والعقلاء العارفون بحال العصر الذين يصدق عليهم تعريف الفقيه في أقوال أحد أئمتهم «هو المقبل على شانه العارف بأهل زمانه »

قد احسن الكاظم في حثه طلاب الترك على تعلم أدبيات اللغة العربية لان اللغة نفسها إنما تعرف بأدبياتها لا بفلسفة فنونها الصناعية وفي حثه إياهم على تعلم بعض لغات العلوم الدنيوية وحجته في هذه المسألة أقرب الى القبول من حجة من يدعو امثال طلاب الازهر الى تعلم الفرنسية والانكليزية لانه لافرق بين التركية والفرنسية في نظر الدين وأما العربية فهي لغة الاسلام لايمكن ان يفهم الاسلام حق فهمه ويكون من علمائه الا من يكون متقنا لها وترجمة القرآن ترجمة تقوم مقام الاصل العربي وتغني عنه في الفهم والاستنباط والهداية هي متعذره كما بينا ذلك من قبل ، ويحتاج في فهم الاسلام الى فهم السنة ومعرفة طرق رواياتها الخ الخ ولم يعط الكاظم هذه المسألة حقها من البيان والتحقيق وهي لم تكن موضوع محاضرته وإنما جاءت بالعرض ، وقد عرفت الرجل هنا وأرجو ان يكون من خير انصاري على ما أسعى اليه من الخير للمسلمين الذي يدخل فيه موضوع محاضرته

﴿ رسالة جمع النفائس ، لتحسين المدارس ﴾

يقول الذين أرسلوا الينا هذه الرسالة ان السيد عثمان بن عبدالله بن عقيل كتبها ليقاوم بها نهضة المسلمين الحديثة لانشاء المدارس وطلبوا منا ان نبين لهم رأينا فيها كما ذكرنا ذلك في الجزء الحادي عشر . وقد تصفحنا معظم الرسالة فظهر لنا ان كاتبها قد كتب مايعتقد انه النافع كما هو ظننا في سائر مكتوباته وانه لم يقصد تثبيط المسلمين عما هو نافع لهم ارضاء للحكام أو لغير الحكام ولكن الذين فهموا منها تثبيط المسلمين عما ينفعهم معذورون ولا يسوغ لنا ان نقول انهم متحاملون ،

الرسالة مؤلفة من ثلاثة فصول أولها في العلم والتعليم والمدرسة و بذل المال لهذا الامر ونتيجة العلم وقد جاء في ذلك بفوائد ونصائح لا بأس بها وان كان فيما استدل به احاديث ضعاف لا يحتج بمثلها ولا نطيل في ذلك لما جرى عليه المؤلفون من التساهل في ايراد مثل هذه الاحاديث في فضائل الاعمال ولا سيا الغزالي رحمه الله تعالى ورأيته يذكر في هذا الفصل كثيرة السلف الصالح ويحث على اتباعه و يعد من ذلك قراءة رسائل وكتب احمد بن زين وسالم بن سمير وعبدالله بن علوي الحداد وغيرهم ممن ليسوا من سلف الامة وهم أهل القرون الثلاثة على المشهور فكأنه يعد المتأخرين من أهل حضرموت وغيرهم من السلف ولأدري ماهي مزيتهم على علماء هذا العصر في الهند ومصر وتونس . وعندي انه لا يعتد برأيه في الكتب النافعة ولا في طريقة التدريس . والفصل الثاني عشرة اسطر في الاتفاق على العمل و بذل المال له ولا بأس به

واما الفصل الثالث فهو الذي يثبط همة من تلقاه بالقبول على علاته لانه ينفر المسلمين من كل ماعليه الاجانب في علومهم وأعمالهم الدنيوية التي بها صاروا اقوى وأعز من المسلمين حتى ان دولة صغيرة في شمال أور با تستولي على أكثر من ثلاثين ألف ألف مسلم في جنوب آسيا وتتصرف فيهم تصرف السيد في عبيده الضعفاء ولو عملت الدولة العثمانية بمثل هذه الآراء لاستولى عليها الاجانب من زمن بعيد ولم تبق للمسلمين حكومة مستقلة

ومن بلايا تناقض هؤلاء المقلدين انهم يحرمون الاستدلال بالكتاب والسنة على من أهم أهل له ويبيحونه لانفسهم مع اعترافهم بأنه ليسوا من أهله ومن ذلك استدلالهم بحديث ابن عمر «من تشبه بقوم فهو منهم» على تحريم كل شيء نافع سبقتنا اليه أوربا ! والحديث لايدل على ذلك على ان سنده ضعيف عند رواته وهم احمدوأبو داود والطبراني في الكبير ، وتصحيح ابن حبان له لا يعتد به لتساهله في التصحيح ومعناه ان من تكلف ان يكون شبيها بقوم فان التكليف يصير خلقا بعد تكرار العمل فيصير بذلك من القوم فيما تشبه بهم فيه فان تشبه بهم في الكتب من أمور الصناعة صار صانعا مثلهم و إن تشبه بهم في الاعمال الحربية صار كواحد منهم في ذلك ، وان تشبه بهم في كل شيء صار مثلهم في كل شيء ولكنه اذا تشبه بهم في بعض الازياء او العادات لايصير منهم في أمور الصناعة أو الحرب أوالدين واذا تشبه بهم في أعمال الدين فقط لايصير منهم في السياسة أو الادارة ولا في الصناعة والزراعة . فالمسلمون في العراق موافقون لمسلمي مصر في الدين لامتشبهون وهم ليسوا مثلهم في اتقان الزراعة فمن الجهل الفاضح ان يقال ان من تشبه بآخر في شيء يصير مثله في غيره ، ويتفرع على هذا اننا نحن المسلمين إذا تشبهنا بالافرنج في الامور الحربية والسياسية والصحية وطرق الكسب فاننا لانكون معدودين منهم في دينهم وان في بلادنا من هم موافقون لهم في دينهم وكثير من عاداتهم وهم مع ذلك ليسوا مثلهم ولا يعدون منهم في الامور السياسية والحربية مثلا

وقد ثبت في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه وسلم لبس الجبة الرومية والطيالسة الكسروية (من لباس المجوس) . ولما أخبره سلمان الفارسي (رض) ان المجوس يحفرون الخنادق حول بلادهم اذا هاجمها العدو أعجبه ذلك وأمر بحفر الخندق حول المدينة في غزوة الاحزاب وعمل فيه بنفسه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآ له وسلم . فبهذا البيان يظهر خطأ السيد عثمان بن عقيل في منعه أن يكون في مدارس المسلمين شيء ما يشبه ما في مدارس الاجانب وخطأ ما أطالت به مجلة « دين ومعيشت » الروسية في بعض المسائل التي جعلت تكأتها فيها حديث «من تشبه بقوم فهو منهم » وهذه المدارس النظامية في مصر والآستانة والشام على طراز

المدارس الاجنبية ولم ينكر ذلك أحد من العلماء في هذه البلاد وما أظن أن السيد عثمان يعد نفسه في طبقة علماء الازهر

وقد أورد السيد عثمان في هذا المقام حديثا آخر وهو « من أحب قوما حشر معهم » وهذا الحديث أورده الحاكم في المستدرك بلا سند فلا يحتج به ولو كان الرجل عالما بالحديث لاورد ما صح بمعناه وهو حديث أنس عند الشيخين « المرء مع من أحب » وفي المعنى حديث « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وهو ضعيف ولكن حسنه الترمذي وأورده ابن الجوزي في الموضوعات . والمراد بالحب هنا ما يحمل المحب أن يتقرب الى من يحبه ويطيعه ويقتدي به ، وما كل نوع من أنواع الحب يحمل على ذلك وقد أباح تعالى للمسلم أن يتزوج باليهودية والنصرانية والزوج يحب زوجه فلو كان معنى الحديث ان كل محب يكون مع من أحبه في الدنيا والآخرة لاستلزمت اباحة نكاح الكتابية كفر المسلم الذي يتمتع بهذا المباح ولاستلزم ذلك الترجيح بلا مرجح فيما اذا أحب كل من هذين الزوجين الآخر كما هو الغالب وهو محال . وأبلغ من ذلك ان الله تعالى قال في خطاب المؤمنين مع اليهود الذين كانوا أشد الناس عداوة لهم (٣: ١١٩ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) فراجع تفسير الآية في ص٨٨ ج ٤ تفسير من القرآن الحكيم

ومع هذا كله نقول ان الذين ينظمون مدارسهم على طريقة الاوربيين ويتعلمون علومهم لا يقتضي ذلك أن يحبوهم بل نرى من المتعلمين في أوربا من هم أشد تعصبا من غيرهم وقد ذكرت هذا لبعض العثمانيين هنا (في الآستانة) فقال والمتعلمون منا على الطريقة الاوربية كذلك . فالسيد عثمان ليس مختبرا ولا عارفا بهذه المسائل وقد علمت ان الحديثين اللذين أوردهما لا يدلان على مراده إن قلنا بأنه يحتج بهما وما كتبه ضار جدا وان أراد به النفع بحسب اجتهاده وما هو بأهل للاجتهاد سامحه الله تعالى

ومن تهافته انه بعد أن استدل بالحديثين على ما لا يدلان عليه لقلة بضاعته في العربية على كونها بضاعة مزجاة ـ شرع يحذر ترك قراءة كتب السلف الصالحين والاستعاضة

عنها بقراءة كتب التأريخ والجرائد ، وذكر من مضارها انها تورث العقائد الفاسدة ودعوى الاجتهاد والاخذ من الكتاب والسنة . واذا جاز لمثله أن يأخذ من الكتاب والسنة فعلى من يمتنع ذلك ؟ وانني أنقل شيئا من كلامه بنصه لئلا يتوهم بعض قراء المنار اننا نرد على عالم مؤلف أخطأ فكبرنا خطأه أو بالغنا في استهجانه . انه حصر عيوب المكاتب والمدارس في ثلاثة أشياء وذكر الاولين منها وهما في المعنى أمر واحد هو التشبه بالاجانب ثم قال مانصه وصورة رسمه :

« والثالث من تلك الفواقر والخسائر ترك قراءة الكتب التي يقرءونها السلف الصالحون التي يكتسبون منها العلوم النافعة وخشية الله والاعمال الصالحة وتبديل تلك الكتب بكتب التواريخ المختلقة والجرائد المعتقة التي يورث في اللسان القلقة وفي القلب العقايد الفاسدة وفي الدين التساهل وتتبع الرخص بل تورث دعوى الاجتهاد المشبه بخرط القتاد وذم التقليد بلا تقييد ودعوى استقلال الاخذ من السنة والقرآن مخالفة لما عليه المفسرون الاعيان فاهي الا كراكبة الاتان تظن انها تسابق الفرسان ومضادا لسيرة السلف الصالحين بل استخفافا بهم بأنواع التنقيص وعنادا بالمكابرة والمغالطة بالادلة الساقطة » اه

ولا يحسبن القارئ أننا اخترنا هذه العبارة اختيارا لركاكتها وكثرة غلطها ووضوح دلالتها على تجرد صاحبها من الفنون العربية كلها بل جميع عباراته كذلك وهو مع هذا يستنبط الاحكام من الآيات والاحاديث فيحرم على الناس ما أحل الله لهم ويحل لهم ماحرم الله عليهم ولا سيا القول في الدين بغير علم ثم ينكر على العلماء الراسخين مثل هذا الاستدلال ! !

هذا — واننا ننصح لأولئك الابرار الاخيار الذين ينشئون المدارس أن لا يلتفتوا الى هذه الرسالة ولا الى شيء من رسائل هذا الرجل وليختاروا لمدارسهم المعلمين الا كفاء الذين يجمعون لهم بين علم الدين وما يلزم لهم من علوم الدنيا وان يكون لسان حالهم ومقالهم هو لسان القائلين « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب »

الفصل الخامس عشر (*

(بيت خديجة بعد الزواج)

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السعيد تزداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله اليها فألقت الى يد هذا الامين بكل ماتملك ولم يرعها أن الكرم المستحكم في سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضعيف والعائل فان سيدتنا لم تكن – مع تدبيرها – بالشحيحة الكاظة على المال الفاني بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على الجود . وهل بعد معرفتها بهذا الكفؤ الشريف ترى لنفسها معه أمراً آيناً في أمره ، أو رأيا يغاير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستعدة ان تزداد كمالا كلما أشرق لها من سماء الفيض الالهي نور منه

وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأمنا ، فقصدته الايامى ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أحمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احيانا تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لاتسلم من العسر على الدوام فساعدة الموسرين في زمن العسر للمعسرين أمر تقضي به الانسانية ولكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين

*) تابع لما في (ص٥٤٩م١١) من سيرة السيدة خديجة، وقد كان كاتب هذه السيرة السيد عبد الحميد الزهراوي اضطر الى ارجاء الكتابة لاعماله السياسية الكثيرة في مجلس الامة

الشكوك والاوهام التي تنهى عن الانفاق خشية الاملاق أما سيدتنا فكانت ترى إنفاق زوجها ومساعدته للمعسرين وأخذه بيد العائلين من جملة المزايا العالية التي تقرُّ بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لايخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أعِدَّ له ، وعابثا بمثل مايعبث به أترابه ، ولم يكن هذا الصبي يتيما بل كان أبوه حيا ولكن أبناء السعادة ، أبناء المجد الابدي ، ابناء المجد السرمدي ، تستأثر العناية الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة وظاهرة يراها من استعدت بصائرهم للاطلاع الجيد

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حي أن يتربى كالايتام في غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير « أبو طالب » ولكن اشتداد الازمة في احدى السنين اضطره ان يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الامين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفا عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الامين هو علياً الذي صار الامام أبا الائمة ، وبدر سماء السيادة في الأمة

كانت تربية عليّ في البيت من جملة المكتوب للسيدة «خديجة» من حسن الحظ فان الغيب كان يعده لأمر جليل له علاقة بهذا البيت

لعله لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم ، ومن أين كانت

تعرف السيدة «خديجة» أنه لا يعيش لها من الذكور ولد وأن هذا الصبي الصغير قد أعده الغيب ختنا كريما وبعلا صالحا لبنتها الصغيرة، وكيف تعلم أنه لا يتسلسل لها عقب الا من تلك الكريمة «فاطمة الزهراء» وأنى يخطر في بالها أنها انما كانت تربي هي وزوجها جدا لعترة تتصل بهذا البيت سيعدها العالم من أشرف العِتَر وستبقى مباركة في الارض دهوراً طويلة عالية المنار، عظيمة الشأن

نعم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب الا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نعم! نعم! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن ولكن كان هذا البيت المملوء نعما يتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم لأن لأهله نفوسا لا تعرف الاستئثار، بل تراه من العار والشنار، لا سيما اذا بئس الجار

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشرنا اليه أما علي فانما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أوسع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للارواح، كما كان مسعدا للاشباح، وليعرف القاريء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبيا قد كان مهدا لأكرم الآداب وأعلاها فان علياً المرتضى هو من عرفه العالم كله، هو ذلك الامام الاكبر الخليق ان يكون مثال القدس وزكاء النفس، هو مجمع المعالي وملتقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى

فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته! قد رأينا الامين يجد فيه

مجالا للتخفيف عن المثقلين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد القصاد صدورا رحبة ، وأيدي مبسوطة، ولديه خيّم الوجود والسخاء، كما خيّم العدل والوفاء ، ومنه اشرقت الآداب العالية ، والتربية الكاملة ، وماذا نرى من بركات هذا البيت بعد ذلك يا ترى؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لججه ، صعبة مسالكه ، وصلنا الى ساحل هذا البحر ولا بد من جوزه ، وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته ، ولا يسو ثوب الهداية رأس مالهم الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله في الجهر والنجوى

ههنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه ، وتشتاق أن تقف على روحه وحدّه ورسمه ، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن بعلها كان من دأبه أن يتعبد بعض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه «حراء» فما هو هذا التعبد وكيف هو ، وما الذي ساق نفسه اليه ، وأيّ دين فرضه عليه ؟

هذا هو النبأ العظيم الذي تتمسك بنا العقول المستقلة اذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه ، واذا أخذنا بايضاحه نخشى أن نبعد بالقارىء عن سياق السيرة ، ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الاخبار سردا

ان الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ولكن بعل السيدة

مجالا للتخفيف عن المثقلين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد القصاد صدورا رحبة ، وأيدي مبسوطة، ولديه خيّم الوجود والسخاء، كما خيّم العدل والوفاء، ومنه اشرقت الآداب العالية ، والتربية الكاملة ،وماذا نرى من بركات هذا البيت بعد ذلك يا ترى؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لججه ،صعبة مسالكه ،وصلنا الى ساحل هذا البحر ولا بد من جوزه ، وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته، ولا بسو ثوب الهداية رأس مالهم الدعوى ، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله في الجهر والنجوى

ههنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه، وتشتاق أن تقف على روحه وحدّه ورسمه، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن بعلها كان من دأبه أن يتعبد بعض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه «حراء» فما هو هذا التعبد وكيف هو،وما الذي ساق نفسه اليه ، وأيّ دين فرضه عليه ؟

هذا هو النبأ العظيم الذي تتمسك بنا العقول المستقلة اذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه ،واذا أخذنا بايضاحه نخشى أن نبعد بالقارىء عن سياق السيرة، ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الاخبار سردا

ان الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ولكن بعل السيدة

«خديجة» لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لأن دين قومه كانت عبادته عبارة عن تمجيد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تعود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها هي بحسب الظاهر أعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبُّها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان بعل هذه السيدة يأتي في غار حِراء بعمل روحي تتوجه فيه روحه تلقاء باريء السموات والارض ومشرف مكة وسائق نفوس العرب اذ ذاك اليها، ولم يكن مقيما أعمالا رسمية

ان البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لغتنا يكلف به مشرح اللغة ، والبحث عن اسباب اختيار الاقوام السالفين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكلف به مشرح التأريخ ، أما البحث عن الاشواق الروحية أو التعبد المحمدي في «حِراء» فمكلف به كاتب سيرة السيدة «خديجة»

العبارة لا تشفي الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط هذا الموضوع بهذه السيرة داعية الى السير في هذا البحر العظيم

قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم نتعرف بالروح ولو قليلا فماذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لا جرم أن تعرّفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتهيه كل امرىء لان كل واحد منا تخطر في باله هذه المسألة :

ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعُدَ نظرهم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم وهو أساس ما يسمى في لغتنا دينا وديانة وملة وأحد الاصول والاسباب في ترقي هذا النوع الانساني وتكمله

هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يبتدىء مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال، اذلا براهين عقلية قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه ، ولكن اذا عزّت هذه البراهين لا يعدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ومن فضل الله على اهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء ولا يُحرمه الا قليل تُزمن فيهم الحيرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قد ملئت آيات ، فاذا حالت دونها الحجب لجَّ العقل في محارات أو عمايات ، واذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات انها لمن تأمّل مراتب وصفوف ، ولكل وجود قوة، ولكل قوة أثر ، واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها، ولمارزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ما لاح له من وجود وظن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزده عنها الا بعدا الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عادته الى

أسماء فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول أنا ويقال عنه هو وان عفا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيمايدل عليه قداشتدتباينهم وحار نظرهم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه و بين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسامي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

بحثت كالباحثين ، وحرت كالحائرين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما ألذها على القلب من حيرة عقباها بلوغ الغاية والحمد لله رب العالمين

اليك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسي وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كانني وليد هذه الساعة ، لانني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الا كوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والا لوان، ولم أكن أشعر بملائماتي ومؤلماتي ، فكأنني كنت غير هذا الموجود الجديد ،

أين كانت لذتي برؤية هذه القبة ، وأنسي بما على هذا البساط ، وأنى كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء ، وزواخر هذه الغبراء . . . ومن حولي الآن أغاني طيور، ورقص غصون ، وأريج زهور ، وبدائع نقوش ، وترتيب صنوف ، وحركات نور ، وتجليات سكون ، وفي أنا آثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني فسمعتني أقول « سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا »

سبحانك يافاطر يابارىء يامصور ولك الحمد ؛ أنا متذكر الآن أنني

أبصرت هذه المرائي ، وسمعت هذه الامالي أمس لما بزغ الفجر بزوغه هذا فأين ذهب ابصاري وسمعي بين ذينك الابصار والسمع اللذين كانا أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتياني الآن وأنا متذكر أن هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة ألوفا من المرات فما هذا الاحتجاب ثم الظهور، وأين كان الاحساس محتجبا قبل ان عرفته أول مرة ؟

رباه ! من اسائل عن هذا ..؟ ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب ! لعلها لا تسمعني ، أو لعلي لا أسمعها ، أو لعلها لا ذكر لها في هذه المسائل، وكيف أصبر على جهلي بشيء يتعلق بي ، كيف لا أبحث عن أصل احساسي وعن احتجابه ! ألا يهمني أن أعرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات ورقها ثم يعود ثم تيبس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا؟ أم أمره كأمر هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يغيب عنها ثم يعود اليها وهو لا يزول أبدا؟.

كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض. كلا سأسائل ثم كلا سأسائل !

رفعت رأسي الى السماء فألفيت بواهر ولا مجيب ،وأهويت به الى الارض فألفيت بواهر ولا مجيب !

فضاء أمامي ، لا أعرف له ساحلا وحدًّا ، تارة يفيض نورا، وأخرى يحتجب بالظلمات، أراني وأرضي محمولين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم الا اسماء وضعوها له لا تشرح كنها ولا تؤذن بدلالة كافية

تتلاعب فيه النسمات لعلها ناسية أن الامر جد، وما هو بالهزل واللعب، وتتناغى فيه الاصوات كأنها تحسب أن في كل موجود دماغا يأخذ بحظ منها ولعل حسابها خائب !

بيني وبين كل ماهو محمول في الفضاء مثلي علاقة قدعرفتها بهذاالنور البازغ، فهل بزغ هذاالنور لاعرفها أم لتعرفني وهل كانت لي أم كنت لهاام كنا جميعالهذا النور أم كان هو لنا ؟ ولكني أعرف بأنوراته لولاك لما عرفت شيئا

سلام عليك ايها النور ! يا حاملا نعمة المعرفة الينا، وشكرا لمن تسبح ايها النور بجلاله ، وتهدينا الى آيات جماله

بالنور عرفت ماعرفت ولكن لست ادري كيف عرفت ، قد نقشت السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماغي، فهذا اليمّ الذي يعجُ الآن أمام غرفتي اصبح لاشيء عندي على اتساعه لانه محدود وهذه الشمس العظيمة التي بدأت تبزغ هذه الساعة قدغدت صغيرة في عيني لاني احطت بها ، وهذه الارض التي اراها كسرير لي قد تلاشت في نظري اذ وجدتها هي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي لا ساحل له، ادركت في هذه الساعة أن هذه الاشياء كلها مهما عظم حجمها فهي كالصفر بالنسبة الى مالا يتناهي ، فعلمت ان ليس فيما أحاط به حسي مايدفع عن فكري عطشته

راقني جمال هذه الكائنات ثم حيرني منها انها كلها مسخرة لنا وما نحن لها بمسخرين فهل نحن على صغر حجمنا اكرم معنى منها ؟

تركت حيرتي ههنا والتفت الى هذه الشجيرات التي اراها تتزين كعرائس الانس وسألتها فلم تجب او لم افهم حفيفها، وانثنيت الى هذه اليمامات الراقصة باعناقها فسألتها فلم تجب او لم افهم هديلها، لكنني استأنست بهذه وتلك اكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق يخالط منها الجنان ، ولا حركة لها الا على يد الانسان ، وطال أنسي بهذه الخضر

المترنحات ، والورق المتفنيات ، حتى كدت أفقه حديثها ، وأفسر تبيانها ، هذه ذكرتني بمعنى الحياة وأعادتني الى نفسي وهي ضالتي المنشودة وبها الهدى الى ماأنشده

لم أجد غير نفسي يجيبني عن نفسي بعد أن ساح حسّي وفكريَ في هذه العوالم المحدودة .. إيَّاها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهي التي حدثتني أني لست الا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك ، وفي هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد من ألوف ألوف ألوف الالوف ، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست كلها مركزاً للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف ألوف من هذه اذا أفسد وضعها لا تزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الادراك الفكري وهو قارٌّ في ذرات قليلة لا يحاط بها

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت اليه ، وهذا المرأى الذي وقفت عليه ، حيرني من هذه الذرات أن تسع صور السموات والارض وصور أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم ، وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة التي تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات

رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستقر للفكر عند هذا المرأى اذ قصاراه

أني عرفت شيئا صغيراً جداً يسم أشياء لاتحصى مع أنني انما أبغي أن أعرف ماهو ذلك الشيء الصغير مبناه جداً جداً العظيم معناه جداً جداً ؟ ماهو ذلك الشيء الذي بوجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركا حسّاسا يحيط بالسموات والارض وبتغيره يغدو هذا الجسم ترابا صامتا صابراً تحت الاقدام ؟ ماهي تلك الحالة المخصوصة ؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؟ هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؟ هل هو يحتاج الى هذا النظام بعينه أم يستطيع ان يؤلف نظاما آخر متى تغير نظامه هذا؟ وان كان تابعا لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصبغة تزول بأسرع من لمح البصر بالنسبة الى عمر غيرها على مايخال وجودها من الاحتجابات ؟؟

محارات بعد محارات ، ولكن تلوح خلالها آيات ، اذ قد ملأ نا رب الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال أن حقائق الاشياء محتجبة والظاهر انما هو آثارها: فهذا النور الذي علأ الفضاء لانعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لاندري كيف قامت ، قصارانا أنا عرفنا سبحها في هذا الفضاء لايسندها عمد ، ولا يعتريها سكون ، وهي مع ذلك سائرة بنظام ، ودائرة بإحكام ، لاتخرج عن مستقراتها ، ولا تحيد عن مجاريها ، ولكن ماهو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام ؟ سموا شيئا من ذلك بالجاذبية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

إن قصارى مانعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحال فاذا حللناها انتهينا الى عناصر قليل عددها لاتتحول ولا تحلل هي الامهات ثم هي تنتهي الى أم واحدة لانعرف من أمرها شيئا !

المشاهدة هي أكبر وسائط معارفنا ، ولكنا لةهذه المشاهدة عاجزة

عن أن ترينا الاشياء كما هي،ولو اقتصر الامر عليها لكانت علومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها الى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم - ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحدمنا الا كمصباح بسيط يشتعل ساعات وينطفىء ساعات، وماهي الاكحجم كرة ممايلعب بها اللاعبون !

على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه ، فقد نرى واحداً وهو متعدد ، وبسيطا وهو متركب ، وساكناً وهو متحرك ، وصغيرا وهو كبير ، حتى نصل الى ماهو صغير جدا فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتدينا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية اءا مساعدة . . بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعا من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهورا دهارير . ولعلنا سنهتدي الى ماريناأصغر من تلك الصغائر . ونحن في مثل هذه الهدايات العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد مايمنعنا من الظن بأننا مهما استعنا بالآلات نبقى في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على ابصارنا وآلاتنا مهمابلغنا بها

فما اكرمك ياعيني عليّ ! أنتِ أنتِ كنت سبب ارشادي الى حقيقتي اذ لم تريها لانني عرفت بالتجربة انك مسكينة عاجزة لاترين كل شيء ولاترين شيئاممّا ترينه على وضعه وحقيقته فاضطررت ان أقيس وجودي على وجود غيري !.. لاجرم ان لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسمي الذي تشاهدينه كما ان وراء النور حقائق مستترة ولا جرم ان حقيقتي هي سبب وجودي كما ان الحقائق المستترة وراء النور هي سبب وجوده

ان الحقيقة العظمى التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها ، وظاهرة عليها كلها هي حقيقة واجب الوجود ، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده ، ولا بد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده . . هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها منه صدرت ، وله العلم الازلي الابدي لان العلوم التي نعهدها من فضله أتت ، وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نجدها من لدنه أهديت ، وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت . . هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده ، وعنه صدرت امثلة الكمال في الوجودات الظاهرة . . هي حقيقة البارىء المصور الذي برأ حقيقة مثال كامل حيّ سميع بصير مريد وجعل حجابه هذا الهيكل البشري

أصبحت لا أرتاب في أن الحقيقة العظمى هي التي تهدينا بآثارها وبامداداتها الى كل شيء مما نعرفه ، ولكن لشدة ظهورها الذي قد يعادل البطون ربما تخفى ، فاذ نطلب معرفة النفس تظهر آياتها العظمى فسبحان الله من عرف ربه فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الآن من امر نفسي أو روحي أنها لا يعرف كنهها ولم يزدني جهلي بكنهها الا ايمانا بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد لانني لم أعرف من أمر كل جزء من اجزاء الجسد الا مشابهته لهذه الجمادات التي أمامي وليس فيما أمامي شيء يجمع فيه ما تجمعه هذه الروح . وقد حاولت كما يفعله بعضهم أن انسب هذه الخواص الى المجموع المركب من هذه المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمح عنه كثيراً لتذكره النظام الشمسي وذهابه الى انه انما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هي به

فما نفسنا او روحنا الاجاذبية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا، وهي هي مؤلفة الهيا كل وناظمتها. لا بدع في ذلك فالكوائن كلها من اصل لا يرى ولم تنفصل عنه ولا يكون الاصل تابعا للفرع ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد مالا يرى فيصير مما يرى، وكيف يتلطف ما يرى فيصير ممالا يرى. الصناعة بهذا ضمينة، والتجربة فيه هادية امينة، ولا يصعب ايضا على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الاشخاص لتتعلم بها ان لها شؤونا غريبة جدا فوق المعهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس، سبحان الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه ان لا حاجة لها بهذه الآلات العضلية والعظمية والعصبية

نحن شاهدنا من هذا كثيرا، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون، والباحثون المحققون شاهدوا ايضا او نقل اليهم ثقات كثيرون بمجموعهم يدفع عن نفوسهم الريب وما علمنا انهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسبابا جلية! غاية ما صنعوا انهم وضعوا لبعض هذه الامور اسماء وظن القاصرون أن هذه الاسماء تحل الاشكال، وتحكي حقيقة الحال!

وسمعنا سماعا لا يستطيع الريب معه البقاء أن اشخاصا يشفون امراضا معضلة بغير علاج ولم يقل لنا علماء الابدان في تعليل هذا الامر الا انه شفاء بالوهم فياعجبا ماهو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفى بالوهم كل شخص؟!

حالة المنوَّم تنويما مغنطيسيا هي من الادلة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة امر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخرق الحجب الكثيفة، وقدّ القيود الحسية، وعمله الاعمال العظيمة من غير حركة بيديها او واسطة يأتيها!

• • •

هذا حديث نفسي وخلاصة ماظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة ، هو اقسام كثيرة ، نصيبنا منه عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحي السميع البصير المريد المستعد للظهور والاجتنان ، المصنوع آية كبرى دالة على جامع الا كوان

وظهر لي ان خصائص الروح الشوق ، ولو قلت ان الروح هو الخلق ذوالشوق لما وجدت هذا غريبا في تعريفها . ولكل روح شوق يناسبها وعلى نسبة شوقها تكون رتبتها وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم المثال والعيان الذي دفعها اليه شوقها الى الظهور

***

كانت روح هذا السيد بل سيدتنا «خديجة» من اعلى الارواح ، وكان شوقها ازكى شوق واقدسه ، كانت عظيمة الشوق الى رؤية فاطرها ولكن هل الفاطر عز وجل يُرى ؟ لعلها حارت زمنا في هذا الامر ، ولعلها قالت لو كان يُرى لكان محدودا وكيف يدخل في حد من برأ الحدود ! ولعلها عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة ؟ وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصا ، أليس القصد من الرؤية العلم ، ألا يمكن العلم بالفاطر مع انه غير متشخص ؟

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها وبيتها الصوري في بيت «خديجة» ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت الوجود الاعلى

ولعلها يئست من ان تجد فيما حولها مايروي اوارها من معرفة فاطرها الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى اصبحت

زاهدة في كل رؤية وكل سمع لانها تريد أن ترى وتسمع الذي اليه طارت شوقا ولذلك رأينا «محمدا» (صلى الله عليه وسلم) قد حببت اليه الخلوة والانفراد ولاسيما اذ شارف الاربعين من سنيه وكان لغار «حراء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حبيبها وطبيب شوقها

من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك الغار ولكن يصح لنا ان نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله : رباه ! رباه ! كيف الوصول الى حضراتك؟ كيف السبيل الى مشاهدات تجلياتك ؟ اليك ايها المولى من مزيد حبي قيامي وقعودي، وركوعي وسجودي ، ومن مزيد شوقي ذرف دموعي ، وفرط ولوعي ، رحماك ياربي! كبد تذوب وعين تسيل، وفكر يتدله ، وانت انت مطلوبي وانت انت ذو الكرم والجود !

***

على هذا المثال كانت حاله ،وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به باله ،وقد فهم القريبون من فهم الروح مقدار فوائد هذه النجوى القدسية وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون ، وليتهم يتذكرون محن الناس وتدلهاتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لاتتوقف الحياة عليها، ولايجدون الطمأنينة لديها ،هذه المحن والتدلهات أقضى بالعجب لعمر الحق لو كانوا يعقلون . وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لاتدركه الابصار فسمو ، وراء مبتغى جليل .

العمل الذي فيه لذة لا مضرة على الغير فيها لا ينكره عقل، ولأرباب الاعمال الروحية لذات لايستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات

فعسى أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها وانتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في نيلها ولا تقف هممهم أمام حزن في طريقها

كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى ، والحقيقة الكبرى ، فلم تر بأسا بل لم تر الا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لاحد له.. كانت قد عرفت أن هذا الغار في «حراء» الفارغ من كل مشتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشبح الشريف الحامل قلبا قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية ، والشوق الى الحضرات الربانية. فكانت تبارك على هذا الغار الفارغ وتسأل الله أن يملأه معالي وبركات وقد أجاب الله تعالى كرمه سؤلها وكتب «حراء» في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس وتحياتهم ومحامدهم . وكم قد ترجمت قرائح الشعراء عن احتراماتهم وتكريماتهم لهذا الغار أو لهذا المطلع الذي فاق بدره البدور، قال قائل منهم :

سلامٌ عليك حِراء الشهير أمطلع ذاك الضياء العظيم
سلامُ فؤاد ذكور شكور بقدر الذي قد صحبت عليم

* *

لأنت يتيمة عقد الوطن ففيك أضاء السراج المنير
بذكراك يلقي الفؤاد السكن فذكراك ذكرى عطاء كبير